أحلام فى درج المكتب

اسم العمل : أحلام فى درج المكتب
النوع : قصص قصيرة
تأليف : حاتم ممدوح
تصميم الغلاف : أحمد الملواني
إخراج داخلي : عبدالقادر فايز
الطباعة : اتيليه تاتش – المحروسة
الناشر : الدار للنشر والتوزيع
المدير العام : محمد صلاح مراد
تليفون : ٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
البريد الإلكتروني : eddar_press@yahoo.com
فيس بوك : www.facebook.com/eldarpublish
رقم الإيداع : ٢٠١٨/٢٦٥٣
الترقيم الدولي : I.S.B.N.: 978-977-702-208-8

أحلام فى درج المكتب

قصص قصيرة

حاتم ممدوح

الدار
للنشر والتوزيع

٢٠١٨

الإهداء

إلى أبى وأمى وإخوتى و . . .

"لقاء عابر"

رأها كحلم لم يتخيله، تنظر بإفتتان إلى فستان أبيض داخل فاترينا. فإنطلق ناحيتها مدفوعاً برغبة الخلاص من التيهة والضياع فى زحمة الافكار والحياة. وإلتفتت إليه كبصيص أمل فى عتمة كآبتة. فتلاقت نظراتهم فى شئ من الدهشة والحنين. وتراءى لة ملامحها التى لم ينساها وقد شابها بعد اليأس رغم الشباب ونضارتة. وطفت ذكريات محملة بلحظات من سعادة وحزن غزت كافة أوردتة. وتحركا بعض المصافحة والعناق ليجوبا الطرقات الخالية فى هدوء الليل والجو البارد. وإبتلعا الطريق كما إبتلع الزمن سنونهم الماضية. وجاد العقل بإصداء شتى من أيامهم الخوالى وتلوكتها ألسنتهم بإنتشاء وحزن:

-تذكري حين لعبنا العريس والعروسة؟

-يومها أمسكت إصبعى لتضع بة دبلة من ورقة ملفوفة، أقنعتنى إنها غالية.

–كانت لديكِ النية لقبول أى شئ فى سعادة ودون إعتراض، حتى الأهل ضحكوا وتحدثواعن لعب العيال.

–وحين تمنيت أن أكون أم.. (قاطعها وعلى وجهة حالة من الإنتشاء)

–أعطيتك عروسة صنعتها جدتى من القماش، وملئتها بقطن من وسادتى.

–كانت لحظات سعيدة، وكانت لديك دائماً حلول لكل شئ قبل أن يتسرب إليك اليأس.

–نظرتنا للحياة كانت بسيطة والمتطلبات لا تعصى علينا، لا أدرى أهى الفطرة أم الحياة كانت أيامها سهلة؟.

–ليتنا نعيش اليوم ببساطة أيام الطفولة.

–ربما كنا اليوم فى تعداد المتزوجين..

وساد الصمت فيما عدا صوت إرتطام أقدامهما بالطريق . وإنتابتهما حالة من الحسرة حاولا ألا يستسلما لها، وتشبث بيدها كالمتعلق بقشة فتأبطها ، وترامت برأسها على كتفه بطريقة ناعمة

سرى فعلها بكامل جسدة ، وإبتسما بطريقة مصطنعة تنم عن حزن دفين، وقررا أن يعيدا ذكريات الماضى بعقول راشدة وأجساد مفعمة بالرغبة والغريزة. فتلاقا بمنزله حين خلى من أسرته. وملست يده رأسها بنعومة فطرح إشاربها وإنسدل شعرها الناعم فى إستسلام، وأفرج أذرة البالطو عن جسدها فاكتشف كنوزه، ولمعت بعيناها نظرة مستسلمة ورغبة فى الإحتضان بعد يأس أحاطها. فإمتلكها بدفعة واحدة فى عناق حار، وإختلطا بجسد واحد. وإنطفئت الأنوار من حولهما وبقى ضوء لمبة سهارى خفيف تلاشى فى ضوء الصباح المتسلل للغرفة. وذاب الصمت فى حضور صوت المنبة الذى غزا أذنة فأيقظة. فوجد نفسة طريح الفراش يخنق بين ساقية وسادة من قطن مصرى عفا علية الزمن، وترآى له بقعة دائريه طبعت بنطالونه، فإتجة إلى الحمام ليغتسل، وإستعد ليوم جديد فى رحلة البحث عن نفسه.

"تمت"

"سيارة تعمل بالمشاعر"

(1)

تركت الحزن يلعق كل ركن فى البيت إستعداداً للرحيل. وإحتميت بين أضلع سيارته هارباً من ذكرى فقدانه. فهالنى قبحها الذى لم تكن عليه أيامه وكأنها توشحت بالسواد حزناً عليه. فتذكرت أفعاله تجاهها حين كان يصيبها شئ، ينطلق كالملسوع إلى أقرب "دكتور سيارات". هكذا كان يسميه. وهكذا كانت كلماته غريبة كأفعاله تجاة أشياءه. وهفا إلى مخيلتى قول أحد الجيران ساخراً:-

- حين نراه يبالغ فى نظافتها. ذات يوم سنراه ذاهب للعمل حاملها على كتفه.

الحق أن السخرية أضحكتنى. ولاحظ ماطرأعلى وجهى. فحاولت إخفاءه حباً وإحتراماً له. فلم يبالى، ولم يعاتبنى على بدا منى. واستمر فيما هو عازم عليه. فأمست أشياءه- وبالأخص سيارته

رغم قدمها – مطمح لى عزيز المنال. سألته ذات مرة أن أقودها. فأخبرنى بمنطقه الذى أضفته إلى قاموسه الغريب:-

- السيارة كالزوجة لايلمسها غيرك إلا بموتك.

إرتخيت إلى ظهر المقعد. باحراً فى الذكريات التى توالت. فبكيت متعة الخوف قديماً حين كنت أتسلل إليها خفية رغم رفضه. وتذكرت إفراطه فى الإهتمام بها حد عدم الخروج بها فى أوقات المطر والظروف المتقلبة. حينها تسائلت بغيظ مكتوم:-

- لم؟.!

- عاملها كملكة تعطيك ماتحب.

كانت لدية القدرة على قول الكلمات الغريبة التى لم أقتنع بها فى قرارة نفسى. ولم أرى لها مكاناً سوى ظهر "توك توك" سائراً بأحد شوارع منطقتنا العشوائية. ورغم ذلك أفتقدتها بغيابه، فتضاربت مشاعرى مابين ذكرى طريقته وحتمية أسلوبى تجاه أشياءه والحياة.

(2)

وصلت إلى الأسكندرية فى محاولة للترويح عن النفس وترتيب الأفكار كان الليل قد ملك زمامها، وركدت الأمطار المنتهية فوق طرقاتها، وهبت رائحة البحر محملة بالذكري القديمة فى رحاب والدى. فحاولت التغلب على وخزها بإدعاء النسيان، وأحكمت ما أرتديه، وإتجهت للمبيت – بعد طول تفكير وتوفير للنفقات– نحو شقتنا التى لم نطأها منذ اشهر. وقفت أمام البناية التى تتصلب بأول أحد الشوارع الجانبية على الطرف الأخر من الكورنيش. لحظتها بدأ رذاذ المطر يطبع بصمته فى إستحياء على الزجاج والطريق. فإحتميت بالمنزل، وصعدت درجات السلم لأتلفع بجدران شقتنا الأرضية. وحاولت جاهداً مبارذة الحنين لأيام ولت بالرغبة فى الوقوف على أرض الحاضر والنسيان. هممت بفتح الشقة. فلم يطاوعنى بابها. إستخدمت كافة المفاتيح. فلم يفرجه أى منهم .سمعت وقع أقدام ترتقى درجات السلم فى سرعة كسرعة المطر الذى إشتد ساعده. إلتفت إثرى. فإذا بفتاه ثلاثينية، تتصلب نصب عيناى بملابس شبه مبللة. تغلق "شمسيتها "بعنف وسرعة ، وتتسائل فى حدة:–

– من أنت ؟!.. وماذا تريد؟.!

(3)

تأملت تفاصيل الشقة بمكانى. لاحظت رغم حالة الإختلاف الطارئة عليها، إنها لاتزال محتفظة بنظام والدى الصارم، ونظافته المبالغ فيها، وكأنه ألزم" الثلاثينية" ذلك عند إستئجارها. تتناثراللوحات على الجدران، وترتكز أنصاف المنحوتات على حوامل بالأركان. والبساطة ثمة مقتنيات المكان من أثاث وخلافه. كل شئ يسبح فى هدوء، وتطل من عمق إحدى الغرف مكتبة كبيرة من الكتب، تبدو كمدخل نحو عالم أخر. تلك الغرفة كانت يوماً ما غرفتى. هممت بالتحرك نحوها بلا إرادة، ولكن سرعان ما نازعتنى قوة أخرى فأبقتنى بموضعى وأبعدتنى عن الجنوح للذكرى. فأقدمت تحمل أكواب من الشاى، مطعمة بلوحات فنية لفلاسفة وموسيقين من بلدان مختلفة. فوضعت مابيدها على ترابيزة بسيطة تبدو عليها مسحة فنية، وتسائلت كسؤال وحسب:-

- أعجبتك؟.!

- لا أفهم فى الفن. ولكن كنت أستطلع المكان فقط.

أومأت فى هدوء، وأشارت إلى كوب الشاى الخاص بى، فحملته بين يداى الباردة، وشاطرتنى فى ذلك الفعل، فحملت كوبها،

وإرتشفنا دون إتفاق، وتبادلنا بعض كلمات المواساه والتعزية حين علمت بوفاه والدى، وبعض الإحاديث الجادة عن عقد الإيجار الساري لمدة شهرين. ولم يتحدث أحدنا عن نفسه.وتمنيت لو أتجرأ على سؤالها وخلق مجالاً للحديث، لكننى لم أستطع لما أحسسته فى أسلوبها من محاولة خلق المسافات. علاوة على ما فى طبيعتى من خجل يدفعنى للتحدث "بغشومية" دون قصد تجاة الجنس الأخر. الحق أعجبنى عالمها، وأخافتنى جرأتها وقوتها فى مواجهة مايطرأ من عالم الرجال. تفحصتها خلسة أثناء إرتشاف قدح الشاى حينها كانت تلتقط نظرة خاطفة نحو ساعة الجدار. أحسست بأنها إشارة لى بالرحيل. حينئذ كان المطر قد توقف بالخارج. فأنهيت مابيدى، وإستعددت للمغادرة معتذراً عن القدوم دون سابق إنذار كريح هبت دون مايبشر بقدومها. فتسائلت من باب السؤال وحسب:-

- ماذا ستفعل إذن؟.

- سأبحث عن فندق هادئ.

أومأت، ولم أعى ماقصدته سوى التسليم بنهاية الحديث. هبطت درجات السلم نحو باب البناية. ولم تزل واقفة بمكانها أمام باب

الشقة. فإلتفت ناحيتها عند دخولِ السيارة، لأرتشف منها نظرة أخيرة ربما لا ألقاها مرة أخرى. لحظتها كانت قد إختفت داخل أحضان الشقة. لا أعرف لم حركت مشاعرى وأستولت كامل عقلى فى تلك اللحظة؟!. وتمنيت برغبة عميقة ألا أبرح مكانى. محاولاً التحدث إليها. سرعان ماتراجعت إحتراماً لذكرى والدى الذى ربما بسببه قد سمحت لى بالدخول تبجيلاً له. ماذا أفعل إذن؟ فعقد إيجار الشقة سليماً وعليه توقيع والدى. والواقع يحتم علىً الأن التحرك والبحث عن غرفة للمبيت بفندق رخيص، حتى لا ينضب ما أملك من مالً قليل. إلتفت نحو شرفتها مرة أخرى. فلم أجدها.أدرت مفتاح "الكونتاكت". فلم تستجيب السيارة للسير. حاولت كرة أخرى. ولكن دون جدوى. نظرت نحو لمبة البنزين لاتزال ممتلئة بما يكفى للسير والعودة للقاهرة إذا أحببت. تعود الأمطار لإنتهاك حقوق المواطنين فى السير بالطريق الذى أخلونه. فتركت السيارة مستسلماً لسيل الأمطار،وفتحت "الكبوت"، وتفحصت أحشاؤها كباحث دهسته تراب المهنة. فلم أفهم شئ سوى أننى تأكدت بان كل شئ بمكانه. عُدت إلى مقعد القيادة، وحاولت مرة أخرى ، فلم تدور وكأنها هوت فى غرام"الثلاثينية". نظرت حولى لأستنجد بأحد السائرين. فلم أرمق أحد . لكمت" الدريكسيون" بعنف بعد أن تكللت كافة مجهوداتى بالفشل.

نظرت نحو شرفتها بنظرة بائسة أعرف أنها لن تجدى شيئاً. فلم أراها. وراودتنى الأصداء والأحداث التى طرأت بوفاه والدى. وزاد عليها كل حدث صغير بلا تأثير، كتأنيبى لنفسى جراء صلفى مع "الثلاثينية" فلعنت موته والسيارة والشقة التى أستؤجرت. إنتفض جسدى من البرودة.، وتسرسب طيف الخوف إلى قلبى مما هو آت. وإرتخيت مستسلماً للإجهاد. وتأكدت من إغلاق كل شئ حولى. وشكرت الظروف لأنها تعطلت والزجاج محكم الغلق. وحبكت نفسى بما أرتدى مرة أخرى، وروحت فى نوم عميق.

(4)

فتحت عيناى، فرآيتها – من بين البخار المطبق على الزجاج– تتقر كحلم لم أفق منه بعد. تحاول فى جدية إستفهام ماحدث. فقصصت لها تفاصيل الأمس. وتأسفت لأنها تركتنى وإحتمت بشقتها، ورافقتنى – كإعتذار عما حدث– إلى أقرب "ميكانيكى". فعُدنا ثلاثتنا نحو السيارة. وهم بإدارة مفتاح "الكونتاكت" بعد أن تفحص ماتحت "الكبوت". فدارت السيارة وسط ذهولى، ونظراتها المحدقة بى. حاولت أن أدفع عن نفسى تهمة إختلاق الأمر. فتسائلت بحزم –لأمحو الشك– عن أسباب عدم تحركها. فاجاب بفتور:–

- ليس بها مشكلة.

- ولكنك تفحصت الماتور.

- ولم أجد به شئ يستحق الأصلاح، كنت أتمم فحسب.

إبتسمت لأخفى الخجل الذى كسا ملامحى. فبادلتنى إبتسامة مزيفة، أكدت لى إقتناعها بما حاولت أن أمحوه، وغادر"الميكانيكى"حانقاً. فودعتها متعللاً بقضاء بعض الأمور

حين أحسست برغبتها فى إنهاء الحديث.جلست إلى مقود السيارة وإستعددت للتحرك نادماً. فكان من الواجب سؤالها ولو من باب المجاملة إن كانت تريد أن أوصلها مكان بعينه . ولكن سرعان ما حاولت نسيان ماحدث. وقررتً بحزم ألا أطأ الشارع مرة أخرى حتى لا ألتقى بها. لحظتها قرع الجوع أجراس المعدة ، فشرخ صراخها جسدى، وجرى الريق لاهثاً وراء وجبة السمك المفضلة لى. فتحركت.

(5)

جلست أعلى "الكبوت"مستنداً الى الرصيف أمام سور الكورنيش مثلما كنا نفعل. تناولت نفس الوجبة التى كان يختارها والدى. حتى ذلك المكان على الطرف الأخر من الشارع الذى تقبع بة شقتنا لم أغيره. إستسلمت– بلا إرادة– لعالم والدى الذى حاولت الهرب منه. تناولت الطعام بلا شهية كسد فم الجوع. أحسست بالبرودة رغم أشعة الشمس المفترشة على إستحياء. تاملت السيارة التى تحاوطها الأوساخ من كل جانب. فقررت تنظيفها وعودتها لسابق عهدها. فغسلت يداى بماء البحر، وهممت بالتخلص من أكياس الطعام. فلم أجد سوى السيارة مكاناً– مؤقتاً– لها مع باقى المخلفات من أوراق وأكياس وفتات الطعام التى عاشت كمحتل داخل السيارة. أدرت مفتاح "الكونتاكت" وشئ من الخوف يذكرنى بتمردها. فتاكد لى ماتوجست منه. حاولت مراراً وتكراراً حتى كاد المفتاح أن يكسر داخل مجراه. فسألت بعض الشباب السائرين أن يعينونى على تحريكها. ففعلوا حتى إنقطعت أنفاسهم. ولم تدور. تُركتُ وحدى أكابد مرارة البحث عن مخرج للأزمة. وأحسست أنها تعاندتى وحدى. وتضاربت بداخلى الأفكار مابين الإتجاه نحو نفس" الميكانيكى" ومابين الخوف من رؤية "الثلاثينية" فتتهمنى علناً أننى أتربص بها. بعد طول تفكير، ضيقت ذرعاً بما فعلته

السيارة، وقررت الذهاب إلى نفس الميكانيكى لعله ينتشلنى من عثرتى، وتذكرتً أن" الثلاثينية" قد غادرت وربما لم تعود بعد.فأغلقت السيارة، وتركتها بمكانها، وإتجهت إليه مسرعاً.

(6)

أثناء عودتنا نحو السيارة. حاولت إقناعه بأن بها شئ ما يستحق الإصلاح. وأن ماتفعله بمستجد. لم يجيب سوى إجابات تسويفية. فآثرت الصمت.وعبرنا الطريق، وإقتربنا منها. فهلعنى رؤية "الكلبش" الذى يطوق إحدى عجلاتها الأمامية لوقوفها بالطريق المخالف. فعُدت إلى نغمة اللعن لها وللظروف.ونظرت حولى لأترصد سيارة المرور. بينما إتجة هو نحو مقعد القيادة. فتابعته بترقب. فبقدر ماكنت أتمنى أن تدور وتنقضى كبوتى. بقدر ما رجوت– فى قرارة نفسى– ألأ تتحرك حفظاً لماء الوجة. بدأ يُدير مفتاح "الكونتاكت".فلم تدور. فإسترحت، وتحدثت بلهجة من أنصفته الظروف بعد طول عناد:–

– آرآيت.

يفتح "الكبوت" ثم يشرع فى فحصه بما يحمله من أدوات خفيفة، بينما أحاول أن أجد أى شرطى ليحادث سائقى سيارة المرور من خلال اللاسلكى. فلم أفلح. لحظتها كان "الميكانيكى" جالساً إلى المقود. يحاول إدارتها فلم تدور فى عناد أستغربه ثم إقترب نحوى بعد أن أغلق "الكبوت"، وتحدث فى لهجة تعاطف:–

- أدفع الغرامة. ومر بى لأتفحصها بالمحل.

عبر الطريق عائداً. وتركنى وحدى أكابد مرارة الإنتظار. بحثت فى كافة أرجاء السيارة لعلهم قد تركوا رقم يصلنى بهم. لم أجد شئ. إستندت إلى السيارة معطياً ظهرى للطريق، ناظراً للبحر.وقررت فى حالة من الغضب بيعها حين أعود من السفر فأنا لم أعد محتملاً لتلك السخافات. تملكنى الضيق والحنق من السيارة، فحادثتها بحدة ولوم حين تذكرت عدم عنادها مطلقاً أيام والدى، حتى عندما كان مريضاً كانت كدينمو لايهدأ جيئاً وذهاباً من المستشفى للبيت والعكس.ما الذى أصابها؟!. أحسست كأن صوت أخر يذكرنى بما كان يفعله لها، فإلتفت ناحيتها وكأنها من أجابتنى. ضحكت لمجرد النكتة اللا إراديه، فتلاشيتها مع صوت رجل المرور الذى تصلب أمام السيارة. إلتفت نحوه محاولاً إخطاره بما حدث. وتشبثت بفكرة إثناءه عن تسجيل الغرامة. وإن إيقافى بالطريق العام ماهو إلا أمر طارئ. لكنه صمم على تسجيلها.أزال "الكلبش" بعد أن دفعت الغرامة. وبدأ المال فى جعبتى ينفذ- كالصبر- فى أشياء لاناقة لى بها ولا جمل. وغادر وتركنى. فركبت السيارة، وأدرت مفتاح "الكونتاكت" فى محاولة بائسة بعد أن فقدت الأمل فى أن تنتشلنى سيارة من موقعى. فدارت. حينها لم يستولى على ملامحى الذهول. فتأقلمت مع الوضع ولكن بقى

لـى أن أقنـع غيرى بـألا يدهشوا. فشكرتها. وقبلت"الدريكسيون" بـلا وعـى. وحادثتهـا مـن بـاب الهـذر والعبـث- أثنـاء تحـركِ نحـو "الميكـانيكى"- لعلـى أعـرف تمردهـا. فحـين رأى السـيارة تتحـرك بإتجاه ورشته. تقدم نحوى متحدثاً بلهجة هجومية:-

- إن كنت مجنون فلا داعى لأن تجننا معك.

أقسمت له فى جدية بأن السيارة بها شئ لابد من إصلاحه. حينها تركت له مقعد القيادة، فأبطلها، ثم نظر نحوى بتوجس وراح يديرها مـن جديـد. فـدارت. وقـرر لتـوه أن يصـحبنى فـى رحلـة طويلـة لنجربها، بعد أن عرضت عليه ذلك، للتأكد من صدق ما أقول.

(7)

دارت الأيـام ومـرت الأيـام، وإسـتمرت أم كلثـوم فـى إعـادة ذلـك المقطع . حينها كنا نجلس على أحد المقاهى الشعبية بعد إنتهاء عملـه. وتوطـدت علاقتنـا، وأصـبحت السـيارة كـل همنـا، وأمسـت مشكلة وقوفها دون سبب أهم حديثنا. فزفر دخان الشيشة بعد أن إختمرت دماغـه بالدخان مختلطاً بأحداث الأيام الفائتة وأحاديث الماضى البعيد التى قصصتها له. وتحدث كفيلسوف :-

- لا أعرف سبباً حقيقاً لعنادها. فالحالة التى دارت عليها، هى نفس الحاله التى لم تدور بها. فكل ماحاولت فعله، ماهو إلا محاولات لإيجاد حل.

أستمع إليه بتأن كتلميذ يتلقى من أستاذه خلاصة خبرته. إحتضنت كوب السحلب الساخن بين كفوفى الباردة فلم أدرك سبيل لسخونته بينهم. وأكمل حديثه بعد أن زفر دخان "الشيشة" مرة أخرى:-

- ولكنى توصلت لشئ أخر..

حملقت عيناى، وإتسعت مداركٍ فى محاولة جادة للتشبث بأى حل محتمل، فدفعه مارآه فى ملامحى للإستطراد:-

- أعتقد أن السيارات مثل أشياء كثيرة فى حياتنا. تفرح وتحزن، وتعرف الذى يركبها "لامؤاخذة" وتحس بالقدم التى تداعب دواسة البنزين .

لاحظ علامات الإستغراب وقد تناثرت على صفحة وجهى فأردف:-

- أأه.. لاتستغرب فهناك الذى يتعامل معها بغشامة، وهناك الذى يملس بحنية. يا أستاذ هذة أشياء لديها حنين وعشرة مثلنا. وربما لديها مشاعر تحركها مرتبطة بمعامله ثابتة وأسلوب معين من شخص واحد ألم تخطرنى بأن والدك من كان يقودها وحده، منذ شراءها من ١٠ سنوات ؟.

أومأت بالإيجاب. فى تلك اللحظة إنتابنى إحساس بأن محاولة تمسكه بما يقول ماهو إلا إحساس بفشله فى إصلاحها. وطمعاً فى تحليل الأموال التى سياخذها. وتأكد لى بأن مايشربه ليس دخان قانونياً بل هو حشيش من نوع أصيل. ودعيته مازحاً "بالميكانيكى الفيلسوف" ثم تحدثت من باب الهذر ومجاراه لحديثه، وأخفت صوتِ حتى لايتهمنا من حولنا بالجنون:-

- وماذا أفعل لأنزع عنها حزنها؟.

- عاملها كملكة تعطيك ماتحب.

تتعقد ملامحى. وتهل صورة والدى كالوحى،وإنسل منها – كالخيط – أفعاله وكلماته الغريبة تجاه سيارته. وودت لو أسئله إن كان يعرف والدى. ولكن حين حكيت مافات لم تبدو منه إشاره تدل على معرفة سابقة به. تحركنا نحو منزله. ولم تتوقف السيارة. ولم تمارس سلطتها فى العناد الغير مبرر، وكأنها سمعت مادار بيننا حين كانت تقف أمام مجلسنا بالمقهى. ثم سألنى:-

- أين تقيم ؟.

- فى فندق هادئ بالمنطقة.

غادر السيارة مودعاً، وتحركت مبتعداً. وإتخذت موقعِ الدائم- منذ أن وطات الاسكندرية- بجانب الرصيف فى نفس الشارع الذى تقبع به شقتنا. فركنت، وأغلقت الزجاج أولاً إتقاء برودة الليل، وفكرت جيداً قبل أن أبطل مفعول السيارة حتى لاتمارس سلطتها فى العناد. فدفعنى سعر البنزين الجديد لإيقافها فوراً. فإرتخيت إلى مقعد القيادة الذى أفردته فأمسى كالفراش، وأخذت أفكر فيما قاله "الميكانيكى الفيلسوف"كمجرد التفكير فحسب فقلت لم لا؟. وبدأت أشك فى أن ماقيل ربما يكون له أرض نجهلها فى حياتنا. وإن

إغفالنا عنها لايعنى أنها ليست موجودة. وإن ما كان يفعله والدى يستحق التفكير وليس السخرية. فضحكت حين بدا لى أن مجرد التفكير أمر عبثى لايستحق سوى الضحك. وإقتنعت بأنه ربما فى عالم أخر نأخذه بمحمل الجد. وليس فى عالم كعالمنا الذى تموت فيه المشاعر تحت سطوة المادة. فهيئت نفسى للنوم تحت سطوة التعب. إستعداداً للغد.

(8)

استيقظت مفعماً بالرغبة والحيويه. عازماً بعد طول تفكير أن أبحث عن مخرج عملى لأزمة السيارة بالبحث عن " ميكانيكى أخر". فلاريب أن هناك سبباً يعجز عن إكتشافه " الميكانيكى الفيلسوف". أدرت مفتاح "الكونتاكت" . فدارت ولم تعاند. فشكرتها كشخص يستحق الثناء.ومررت أمام البناية، ولم يشغل عقلٍ سوى إيجاد حلاً لعناد السيارة بالبحث عن "ميكانيكى "ذائع الصيت، قليل الأجر، خبير بأدق أمراض السيارات. فضحكت حين وجدت نفسى أردد كلمات والدى الغريبة، كما ضحك من قام بوصف "الميكانيكى" لى. فإتجهت إليه. وقصصت له ماأصاب السيارة. فأحضر لى مقعداً. وأمر "القهوجى" السائر بالمشروبات بين العاملين بالورشة بإحضار مشروب لى، وإتجه نحو السيارة ليتفحصها. وإرتمى فى عشقها ليعرف علتهاعلى أنغام أغنية" هاتعورنى هاعورك وهابوظلك منظرك" التى يدوى ضجيجها بالمكان. وإنسجمت فى إرتشاف المشروب والنهل من الذكريات متلاشياً تلك الأغنية وكأنها لم تكن. وصوبت بصرى نحو السيارة التى لاتزال محاطة بالأوساخ. فتذكرت يوم أن إبتاعها والدى. وكيف كنت أزهو بها أمام الأصحاب كشئ خارق؟!. وكيف كنت لا أبرح الشرفة متأملاً لها حين إبتاعها والدى؟. لاريب أن ذلك ما

زرع محبتها بقلبى حتى الأن. فحين نكبر نرى أشياءً كنا نحبها قديماً ليست بالقيمة التى تستحقها فى قلوبنا الأن، ولكن يبقى تعلقنا بها مرتبط بطفولتنا ولحظاتنا وأيامنا الفائتة. توقف "الميكانيكى "حيالى ونزعنى من جُب التفكير ثم تحدث وهو ممسك بيده قطعة من أحشاء السيارة:-

-هذة القطعة سبب العطل، ولابد من تغييرها.

أومأت بالموافقة على تبديلها، بعد أن رأيت أن ثمنها مناسب لما أملك من مال. فأمر صبي له بإبتياعها من بائع يعرفه. جلست إلى مقعدى مرة أخرى ممسكاً بالقطعة التالفة التى إستعرضها نصب عيناى. بينما إتجة "الميكانيكى "نحو الورشة ليفعل شئ ما أوغر صدرى لما بذلته من أموال هباءاً منذ أن بدأت تتعطل دون سبب. فأخذت أفكر بحديث" الميكانيكى الفيلسوف"- مرة أخرى- ليس من باب الإقتناع ولكن من باب تقليل النفقات. أُذن لصلاة الجمعة، فأطفأ الأغنية التى ظل يعيدها مراراً وتكراراً. وإنتهزت الفرصة، وإتجهت نحو مسجد المرسى أبو العباس بينما ظل أنين الأغنية فى أُذنى، فصرت أرددها بلا إرادة.

(9)

عُدت إلى الورشة. وإتجهت نحو "الميكانيكى" الذى لم يزل منغمساً فى إصلاح السيارة. فتابعت عمله منخول التفكير مابين ما أومن به ومابين ماسمعت فى خطبة الجمعة مما يؤكد صدق حديث" الميكانيكى الفيلسوف" أحسست بثقل الوقوف تارة فجلست وشرعت فى إعادة ماقاله الخطيب فقلت لم لا؟!. وقد حن الجزع لرسول الله. إذن ربما هى أشياء تحزن وتفرح. فوقفت بلا إرادة تارة أخرى حين إستغرقنى التفكير. فتصلبت جانبه أثناء إصلاحه للسيارة. فتحدث إليه من باب التسلية، وبوحت له عن معاناتى مع السيارة وذهابى بها من ميكانيكى لأخر. فلم أجد منه سوى توبيخ "للميكانيكى الفيلسوف"، قائلاً بأن أمثاله سبباً فى ضياع هيبة المهنة. ولم أسلم من لومه وعتابه لأننى من إخترت الشخص الخطأ وتملكه الضحك الهيستيرى حتى فلتت منه شخرة دون قصد حين أخبرته بما قاله لى" الميكانيكى الفيلسوف". وأثناء حديثنا حاولت أن ألتقط مايفعله. فلم أتوصل لشئ. وإتجه نحو مقعد القيادة ثم أدار مفتاح "الكونتاكت".فدارات. الحق أننى فرحت لأننى لست مقتنعاً بما قاله "الميكانيكى الفيلسوف". و أغلق "الكبوت"، وسألنى أن أجلس على مقعد القيادة لأجربها. ففعلت. فلم تعاند. نفحت الأسطى أجرته. وإنطلقت فرحاً لإصلاحها وحزيناً على ما

أنفقته من أموال. لحظتها حسبت الأموال التى فى جعبتى فوجدتها قاربت على النضوب. فقررت تنظيف السيارة وإعادتها لسابق عهدها – وفاءاً لوالدى وعهدى معها– ولكن ربما بيدى. وقررت الذهاب إلى "الميكانيكى الفيلسوف" حتى أوجه إليه رسالة توبيخية، وأن مشكلة السيارة ليست كما كان يدعى. وأحسست أننى إنتصرت لنظريتى، وحاولت تأكيد ذلك بقول أن الجزع من النبات. والنبات كالحيوان والإنسان –عندنا– يتنفس ويأكل ويشرب ويتكاثر. أما السيارة فهى جماد ثابت لاحياة فيه. وماكان يفعله والدى تجاه أشياؤه كان إفراط يستحق الإعتراض. ركبت السيارة، وترنمت بتلك الأغنية الشعبية التى سمعتها عند " ميكانيكى القطعة التالفة". وتركت العنان لنفسى وانا أشدو بها. إتجهت نحو المقهى، فلم أجده. نظرت فى ساعة "الموبايل"، فلاحظت أن وقت إنتهاء عمله لم يحن بعد. فإتجهت نحو "الورشة" الخاصة به.

(10)

عندما وقفت أمام ورشته. كان يتفحص سيارة، توقفت عن السير، فترك مابيده من قطعه غيار تالفة، وإقترب ناحيتى. فصافحنى، وتسائل:-

- كيف حال السيارة ؟.

- هذا ماجئنت لأجله.

عرض علىً الجلوس بترحاب، وهم بإنتزع مقعد لى حتى أستريح، ولكننى إلتفت نحو السيارة، وأحضرت منها القطعة التالفة. حينها إستغل الفرصة وتابع صبيه المنغمس فى إصلاح السيارة المتوقفة. هممت بالحديث إليه، فإلتفت نحوى مستغرباً مما أحمله بيدى ثم تحدثت بلهجة ساخرة وتأنيباً له:-

- هذة القطعة سبب عطلها.

أحس بالرسالة الخفية فيما قلت من حديث، فقال بعزة نفس وكبرياء:-

- مبروك إصلاحها، فمالك لديك، ولم أأخذ أجرتى بعد.

ثم إستطرد_:

- أتمنى لها الدوام.

أحسست فى ذلك الإسلوب تصنع لم أقبله. فضحكت ساخراً من لهجته الكلاسيكية التى لاتتماشى مع روح العصر رغم عمره الأربعينى. وهممت بسؤاله عن نفسه وتعليمه ولكنه إلتفت ليكمل إصلاح السيارة المتوقفة معلناً إنتهاء الحديث. غادرت "الورشه"، وإتجهت نحو السيارة حاملاً القطعة التالفة. وإنطلقت نحو المكان المعتاد الذى أمسى كجحر اختبئ به هرباً من إيجار غرفة للمبيت، فدفعتها فى إصلاح السيارة. بقدر ماأحسست بالراحة لإفراغ شحنه الغضب بسبب إضاعه الصفاء الذى كنت أرنو إليه فى تلك الرحلة، وتحميل كاهلى بعبء فوق كومة أحزانى. بقدر ماشعرت بالحنق والضيق من نفسى للإسلوب الذى تعاملت به مع "الميكانيكى الفيلسوف". فإتخذت قراراً فى الغد بالذهاب إليه والإعتذار. وأحسست بالفرحة لأننى تغلبت على المشكلة التى طالما أرقتنى فى الايام الفائتة. وشعرت بأن مشاكلى قلت وهانت رغم عظم فقدان والدى. فطرحت جسدى من عناء اليوم على المقعد المبسوط، وروحت فى رحاب أهل السماء.

(11)

إستيقظت باكراً، تغزونى نسائم الصباح فتزيدنى إقبالاً على الحياة، وإسراعاً فى إستغلال ماتبقى من أيام فى عمر الرحلة. هيئت نفسى، ورتبت أفكارى. فقررت تنظيف السيارة بيدى توفيراً للمال. وقرع الجوع ناقوسه، فهممت بالتحرك لتناول الفطور على أى عربة فول بشارع جانبى ثم تنظيفها بعد ذلك. فأدرت مفتاح "الكونتاكت". فلم تدور. إستغربت كما لم أستغرب من قبل. حاولت مراراً وتكراراً، فلم تتراجع عن عنادها. نزلت عن السيارة، وفتحت "الكبوت" فى محاولة تطبيق ما إكتسبته من خبرة الأيام الماضية. فلم تملؤنى الجرآة للأمساك بأى شئ خوفاً من إحداث ماهو أكبر، وبالتالى يقع على عاتقى سبب عطلها. فى تلك اللحظة أحسست بميلاً عظيماً نحو رأى "الميكانيكى الفيلسوف" ورغبة عارمة فى الإعتذار له الأن. وأحسست بأن هناك رسالة ما، تصر السيارة على تلقيمها لى. وقررت بعنف بادى على ملامحى الذهاب إلى "ميكانيكى القطعة التالفة". وتضايقت لتعطلها وإعاقتى عن التحرك. وقفت أمامها مكبل اليدين. هممت بضرب عجلة السيارة فلم تطاوعنى قدمى أو على الأرجح عقلى الذى كان مملوءاً فى تلك اللحظة بالميل نحو حديث" الميكانيكى الفيلسوف". لحظتها أحسست بالتخبط. فبعد أن رسوت على بر

ليلاً، عُدت كرة أخرى لأحضان الأمواج المتلاطمة. لحظتها رأيت "الثلاثينية" تقترب بإتجاهى. فأظهرت لها نفسى ولم أختبئ. وقررت بثبات أن أحادثها دون خوف مما ساورنى سابقاً من إحراج. وحين إقتربت ناحيتى. صافحتنى، ووجدت نفسى أخالف كل ما عزمت عليه قائلاً:-

- كنت أصلحها عند "الميكانيكى الفيلسوف."

لم تعقب على كلمة "الميكانيكى الفيلسوف" ولمت نفسى على ماقلت من إختلاق سبب لوجودى بالمكان، ثم تحدثت بلهجة هادئه:-

- لازالت تقف فجأة؟.

- منذ أن فعلتها أول مرة.

أجبت على قدر السؤال وحسب. متوجساً مما قد ينطوى عليه حديثها. تفحصت السيارة بنظرة خاطفة، ثم تحدثت:-

- لم أراها هكذا أيام والدك. لم لا تنظفها وتهتم بها؟.

- عزمت الأمر على ذلك. ولكن هذا لايمنع أننى أنفقت قدر كبير مما أملك فى شراء قطع غيار وأجر" ميكانيكى" وغرامة وقوف بالطريق العام. فتحولت نزهتى جراء ذلك إلى رحلة علاجية للسيارة.

فإبتسمت مجاراه للسخرية، ثم تلاشت تدريجياً، وتسائلت بجدية:-

- منذ متى وهى تفعل ذلك؟.

- إن شئتٍ فقولٍ منذ رحيل والدى.

تتحدث وكأنها وجدت مايؤيد شيئاً ما شغل عقلها:-

- قرأت أن الأشياء تحيا بوجود صاحبها وتستحيل إلى موت بفناءه.

أتسائل فى جدية كباحث تعلق بقشة:-

- فى أى مكان قرأت ذلك؟!

- ربما فى مجلة تتحدث عن الشاعر "نزار قبانى."

ثم إستطردت:-

- ألم تسمع أغنية "أيظن."

أومأت بالنفى.فأشارت إلى مقطع شدت به" حتى فساتينى التى أهملتها فرحت به. رقصت. على قدميه". رغم إيجازها فى قول المقطع إلا أن صوتها أطربنى بقدر ما أطربنى جمال أفكارها يوم أن قابلتها أول مرة. الغريب فى أننى لم ينبض قلبى بشئ كأول مرة. وأدركت بأن ماحدث أول مرة ماهو إلا محاولة للوثوب عن لحظة الحزن. سرعان ما تذكرت الاغنية كما تذكرت أننى كنت لا أعطيها قدر من الإهتمام. الحق أنه لم أكن أنا ولكنه عصرنا وما يفرضه على مسامعنا من أغانٍ. فبقدر ما أحسست بهوى نحو سماع الأغنية بجدية. بقدر ما أوغر صدرى تجاه "ميكانيكى القطعة التالفة" الذى إبتز أموالى ولم يصلح السيارة التى لازالت تتعطل. وبعد طول تفكير وصمت. تحدثت :-

- إذن..مما قلتٍ فالسيارة لن تعمل

- ربما إذا عاملتها كما كان يعاملها والدك.

(12)

نظرت نحو السماء. فرآيت بعض السحب القليلة، وأشعة الشمس تغزو المدينة رغم برودة الجو. فإطمئننت بعض الشئ، وقررت تنظيفها برغبة داخلية فى الوفاء بما عاهدت عليه، مقتنعاً – بعض الشئ – بحديث" الثلاثينية"، طارقاً كافة الأبواب المحتملة. فسألت عجوز يجلس أمام "دكانه" أن يملأ" جردل"– أعطيته له_ بالمياة. ففعل. وإتجهت لأبتاع منظف من أقرب محل لأدوات النظافة. حينها كان العجوز قد تفضل شاكراً بملؤه. فهممت بغسل السيارة وتنظيفها. نظر العجوز نحو السماء، ودعانى للنظر إليها ثم قال:–

– ربما تمطر. حينها سيضيع مجهودك هباءاً.

ثم إستطرد:–

– إن كان لابد، نظفها داخلياً. أما الشكل الخارجى فحسبك "قماشة مبللة."

إستجبت لحديثه. وشرعت بتنظيف السيارة تطبيقاً لتوجيهاته التى تشبة توجيهات والدى بحد كبير. ففعلت طائعاً ما كنت أرفضه

قديماً. فهندمتها من الداخل تحت إشراف "عجوز الدكان"، وخلال رحلة التنظيف تحدث:-

- هذة السيارة ملكك؟.

- ورثتها عن والدى (رحمه الله)

- لدى أختها.

وأشار نحو سيارة طبق الاصل ترتكن إلى جانب الرصيف أمام "دكانه". وأخذ يُعدد فى مميزاتها ثم لعن نفسه حين قرر أن يبيعها. فتذكرت فكرة البيع حين طرأت على عقلى وإتخذتها مأخذ الجد ثم تراجعت. سألته:-

- لم قررت أن تبيعها؟.

- مررت بضائقة مالية. الحق أننى حزنت لفراقها وكأن شخص عزيز مات لى.

توقفت عن هندمة السيارة، وإستمعت لحديثه مندهشاً. فأكمل:-

- هذة السيارة عاشت معِ الحلو والمر. فأنا أعرف كل خبطة فيها وقصة كل خدش. وحين عرضتها للبيع كنت أذهب لألقى

نظـرة عليهـا متمنيـاً ألا تبـاع، وأن تبقـى بمكانهـا ولا تجـد مـن يبتاعها. لحظتها هل الوحى، وتذكرت سائقى "الميكروباص" الذين يلتقطون صور لهم مع سياراتهم ثم يعلقونها على الزجاج المقابل لدريكسيون السيارة. حينها لم أكذب خبر. وإتخذت صورة لنفسى مع سيارتى. واحتفظت بها.

أخرج الصورة من حافظته، وجعلنى أشاهدها. لم أستغرب مافعله كإسـتغرابٍ يـوم أن رأيـت مثـل تلـك الصـور داخـل سـيارات " الميكروباص". ولم أعرف فى حينها سبب ذلك. ولكن ربما نعتبر العشرة التى تربطنا بأشياءنا كما قيل لى تحليل منطقى. إذن فلا مـانع أن تبادلنـا نفس المشـاعر. حينهـا كـان قد بـدأ رذاذ المطـر يطبـع بصـمته علـى زجـاج السـيارة والطريـق. فإتجهنـا لنحتمـي "بالدكان". بينمـا يـذكرنى "عجـوز الـدكان" بمـا كـان سـيحدث فـى حالة غسلها وعدم الأخذ بنصيحته.

(13)

قبعنا داخل"دكانه"، وإحتسينا مشروب ساخن أعده بنفسه.ثم إستطرد دون أن ينسى ما إنتهى إليه الحديث كالمتشوق لإتمامه:-

- ولكن القدر أبى أن يطيل الحزن على الفراق، وجاء ذات يوم" الميكانيكى" الذى تركت له السيارة، وأخبرنى بفشله فى بيعها. نظراً لأنها تتعطل بلاسبب مع كل ذبون يأت لشراءها.

قطع حديثه ثم قال كملاحظة:-

- أنت تعرف ذلك "الميكانيكى" فقد رآيتك معه.

وأشار إلى محل "الميكانيكى الفيلسوف" بأخر الشارع الطويل الذى تقبع به شقتنا الأرضية. فأكدت على حديثه ثم تسائلت:-

- لازالت سيارتك تعمل؟.!

- رهوان، وكأن الفرحة كستها، وزهزهت مثل عشاق تلاقوا بعد طول إفتراق.

فى تلك اللحظة طفت بداخلى رغبة ملحة فى سماع أغنية "أيظن" حتى أستمع إلى المقطع الذى أخبرتنى به"الثلاثينية".

فسألته أن يشغلها إن كان يملكها. حينها لم يمهلنى القدرة على الحديث حين شرع – رغم صوته اللاموسيقى– فى غناء الكوبلية بإنسجام. فإستمعت، ولم أعترض.

(14)

إتجهت فى صحبة "عجوز الدكان" نحو "الميكانيكى الفيلسوف". فقد كنت أخطرته بكل ماحدث خلال جلستنا.فأصر بحكم معرفته به أن يصلح ماكُسر بيننا. كانت الأمطار قد توقفت وركدت آثارها فوق الطرقات. فإستقبلنا بالترحاب. وعاتبنى دون أن يخفى فى صدره حاجة.فإعتذرت بعد أن أوضحت له مادفعنى لذلك. فعُدنا ثلاثتنا نحو السيارة. وهم بتفحصها، ونظر إلى القطعة التى تم تغييرها. وجال ببصره داخل أحشاء السيارة ثم إتجة نحو مقعد القيادة. وأدار مفتاح "الكونتاكت". فدارت دون أن يفعل شئ. لم أستغرب فقد سئمت الموضوع برمته. فأستطرد وكأننا فى برنامج تعليمى:-

- سننزع القطعة التى تم تغييرها وسنرى إن كانت هى سبب العطل أم لا؟.

فإنسجم فى عمله. وعاد "عجوز الدكان" إلى "دكانه"، وجلست منتظراً وكأن الإنتظار كُتب على جبينى. ففكرت فى بيعها، وتذكرت أنه مستحيل وفقاً لما قاله "عجوز الدكان". وإن كان محتملاً التغلب على صعوبة بيعها بتركها "لميكانيكى" لا أعرفه

أو معرض سيارات، فلا أقص لهم عُلتها. ولكن كيف لى أن أنسى طفولتى وذكرياتى معها؟.كما أن الظروف لم تمنحنى الأن القدرة على شراء غيرها. هكذا ظللت عائماً مابين التمسك بها أو بيعها والتخلص منها. جاء "عجوز الدكان" ليتابع سير العمل. وأخرجنى من عمق التفكير الذى أحلق به أو يحلق هو برأسى لا أعرف. فأعطانى كوب من الشاى السادة الساخن. وأمحض كوب مثله "للميكانيكى الفيلسوف" الذى إستعد لإدارة السيارة. فأدار مفتاح "الكونتاكت". فدارت السيارة. فى تلك اللحظة أحسست بأننا فى لعبة ليس لها نهاية. وإن ما قاله لى كان بدافع الصدق، وما مر به من مواقف. فأكد "عجوز الدكان" على حديثه. وتوقف عقلى عن التفكير، وتحركت فى صحبتهم نحو "ميكانيكى القطعة التالفة". فأدركت أننى وقعت صريعاً بين أى من الرأيين الأحق بالتصديق، ووجوب أخذه فى الإعتبار.

(15)

أتذكر حينها أن كل فريق نظر للأخر بسخريه وإحتقار محاولاً أن يبرر صدق مايقول،.فى تلك اللحظة لم أخفى إقتناعٍ بما قاله "الميكانيكى الفيلسوف" وكذلك "عجوز"الدكان". نظراً لما رآيته داخل ورشة"ميكانيكى القطعة التالفة" من صورة له وإبنه وبخلفية الصورة سيارته المتصلبه أمام ورشته. فقررت أن أتعامل مع السيارة كما كان يتعامل معها والدى حتى أستطع- ع الأقل- العودة بها إلى القاهرة. فعصرت عقلى لأتذكر ما كان يفعله والدى. وأول ما توصلت إلية أنه كان لايخرج بها فى وقت ممطر ومتقلب كتلك الأيام. فكان لزاماً وواجب علىً أن أنظفها جيداً وأعادتها كما كانت.ففعلت. وتذكرت كيف كان يقودها؟. وكيف كان يضغط دواسة البنزين. تذكرت تفاصيل كاملة كانت طى النسيان. فتحولت إلى نسخة طبق الأصل منه. حتى ماكنت أعتقد بأنه لايصلح إلا على ظهر" توك توك" من كلمات وأقوال. أصبحت تشغل حيز من تفكيرى وصرت أرددها. فتذكرت أسماء أختلقتها فى تعاملى مع أشخاص الرحلة كدأب"الميكانيكى الفيلسوف"و "عجوز الدكان" و"الثلاثينية".بناءاًعلى ذلك تعاملت مع السيارة كما تحب أن تتعامل أو كما كان يعاملها والدى. حاولت أن أعيد لها رائحته حرصاً على ألا تمارس عنادها المفاجئ. فلم

أُسلم منه. فأعانونى على العودة للقاهرة مقطوراً بسيارة أخرى. وإتخذت قراراً جدياً بالذهاب إلى التوكيل الخاص بها كما أخطرنى " ميكانيكى القطعة التالفة". فبحثت عن التوكيل. وإتجهت إليه بما فى نفسى من هوى طفيف نحو ما كنت أؤمن به، فأخطرنى بأن سبب تعطلها قطعة تالفة وسيتم إستيرادها من المصنع بالخارج إذا أحببت. فلم أتسائل عن السعر لما فى الإستيراد من تكلفة أخرى لا أستطع عليها. فآثرت تقليل النفقات. وإقتنعت بعدم جدواها. فآثرت الإنحياز إلى ما قاله "الميكانيكى الفيلسوف". وقررت الإحتفاظ بالسيارة التى أدهشتنى. ولكن ماأثار إستغرابى حقاً، أولئك الأشخاص الذين قابلتهم خلال رحلتى.هل من الممكن أن نجد من يفكر بهذة الطريقة فى عالمنا؟. وماذا سيحدث إذا أصبحنا نفكر بهذة الطريقة؟. أم أننا بالفعل نفكر هكذا دون أن نشعر رغم ماطرأ علينا؟. فقررت بعقل باحث أن أتحرى عن علاقة الأنسان بأشياءه. وتاثير ذلك على الأشياء بفقدانه.رغم مافى نفسى من هوى نحو إمكانيه إصلاحها ولكن ربما فى تعنت الظروف ما يجعلنى أكثر ميلاً نحو رأى رفقاء الرحلة.فأمسى ذلك مسار دراستى مابعد الجامعية. وبلاارادة وميل عقدت العزم على شراء سيارة تخصنى ربما تحزن لفقدانى مثلما حزنت علي والدى سيارته.فإبتعت تلك السيارة..

أشرت إلى سيارة حديثة، تقف بجانب سيارة والدى التى نقبع بداخلها، فنظرت زوجتى – وأنا أقص لها قصتى– نحو السيارة بقلة إهتمام، ثم تسائلت بدهاء:–

- وماذا عن "الثلاثينية"؟.

- أعطتنى كتاب الشرق الفنان لأقرأه. وصافحتنى مودعه.

"تمت"

"ليلة شتاء"

(1)

"لست حزينه ولا يائسة لأننى بلازواج. فأنا لاأؤمن بالزواج لمجرد الزواج ولكننى أؤمن بأن هناك من هو مثلى تماماً. قد كتبه لى القدر، ويبحث عنى مثلما أبحث عنه. وقد يكون لقاؤنا فى أثناء بحثنا عن شئ أخر. وداعاً حتى ألقاك"

إنتهيت من القراءة. وتملكنى الذهول، مماقرات بذلك الكتيب الذى يحوى بين دفتيه تلك الخاطرة. جذبنى أسمة فإبتعته من أحد بائعي الكتب المستعملة المترامين على الرصيف. تفحصته فى تأمل وإستغراب فهو مغلف بطريقة بدائية، ومعنون بإسم فقط " خواطر فتاة ليست يائسة " ولم يدون عليه ملامح لدار نشر تتبناه، فأمسى كالليقط مجهول الهوية. من الداخل ليس برواية وليس بقصة لقد صدق من أسماه خواطر. بدأت فى قراءته بشئ من التطفل مملوءاً برغبة فى جديد يكسر حالة الملل والركود. كتب بخط يدوى غير واضح، تتداخل الكلمات فى غير إهتمام بالمسافات. لذا فقد

غادرت مجلسى بالفراش لأمكث بمكتبى محاطاً برغبة جامحة فى فك طلاسم الكلمات المبهمة. دققت النظر فيما بُطن جوف الكتاب. فتلاقت الخيوط فى إنسيابية، وترابطت الكلمات فى جمل واضحة دخلت القلب المشتاق لنسمات الحب والدفء فى ليالي الشتاء الذى تهبط أمطارة بالطرقات. فكانت تلك الخاطرة بداية. أشعلت سيجارة وزفرتها، وشعشع الفكر، غمرت السعادة جسدى، فإنتابنى إحساس بأن ماقرأته رسالة خفية. فأمنت بها كإيمانى بعبث القدر وقدرته على أن يجمعنا بمن لم يكونوا فى الحسبان ونحتاج إليهم بأكثر مما يحتاجون. وطوقنى إحساس بالتقرب نحو كاتبتها فقد لمست كلماتها مشاعرى. ولعبت على وتر الصبابة بداخلى فتحول إلى وتر نهاوند. قرأت أكثر فيما مُلئ سطور الكتاب وزادت رغبتى فى قراءة المزيد، ولكننى لم أصل إلى مكان أو ميعاد أو حتى إسم لكاتبة الخواطر.

إسترخيت مسنداً ظهرى إلى مقعدى، وإختلط الواقع بالتخيلات. وهبط العقل فى بئر عميق ملئ بالأفكار المتزاحمة. وإنتفض الجسد ممزوجاً بأسباب البهجة التى إختلقتها تلك الخواطر المكتوبة فى كتاب بلا إسم كاتب أو ناشر. وإختلط الهواء المنعش ببحر أفكارى العائمة. وإنتزع فكرة طائشة إستسلمت لها. وقررت

على إثرها مغادرة المنزل. فتلفعت بملابسى. وأنا أُمُنى نفسى بأن أجد لدى بائع الكتب المستعملة جواب محتمل عن كاتبة الخواطر.

(2)

وطأت شارع التحرير، الأمطار لاتزال فى ذروتها. الشارع خالى إلا من أُناس قليلون يحاولون الإختباء من إغتصاب المطر. وأنطلق أنا مدفوعاً بجنون فى رحلة البحث عن المجهول. ويزوغ بصرى دون إرادة منى نحو قاعة السينما التى تعرض لافتتها فيلم أبيض وأسود فى زمن تلطخ بالألوان. وتملكتنى الرغبة فى الدخول. فأنا من عشاق الغرابة والتجديد وكسر الرتابة. فنظرت بساعة يدى، الوقت تأخر والأمطار لاتزال فى ذروتها، ولن أجد لبائع الكتب أثر. فتتبعت أهوائى . وأجلت الذى غادرت المنزل لأجلة حتى الغد. وأتاحت لى موظفة الشباك أن أختار مايحلو لى من المقاعد. فالتذاكر كاملة العدد أمامها. فلم يحضر أحد. جلست منتظراً أمام باب قاعة العرض الداخلية لحين بدء الفيلم. وألقّى الصمت على المكان فدمغة بطابعة . وأصغيت لة مطرقاً رأسى واضعاً سماعات هاتفى بأذناى، وتأملت المكان حولى بنظرة فيها شئ من الملل. فلم يحضر احد. أرتشف قدح شاى قدمه إلىً عامل البوفية فقبلتة شاكراً بعد أن دفعت الحساب. وسرعان ماهوى على مسمعى وقع أقدام أذاب الصمت كذوبان حبيبات السكر فى الشاى . وهلت فتاة أنيقة بالمكان. فأثارت حواسى الكامنة والظاهرة. وجلست أمامى فى هدوء كهدوء وجهها .فتابعتها

بنظرات خلسة متفحصة فأعجبنى إعتنائها بنفسها ففى ملابسها وملامحها مايضفى عليها حالة من الإختلاف. وإزداد خفقان القلب كاناقوس خطر، فإنتبة العقل، وإنهمكُت فى النظر نحوها بعين متفحصة. وثبتُ بصرى تجاهها فى تعمد وإصرار للفت إنتباهها. ووضعت السماعات بأذناها وهندمت نفسها. ورفعت بصرها فى هدوء لتتفقد المكان من حولها. فلم تلحظ شئ جديد سوى نظراتى المارقة صوبها. فتتحاشى النظر إلىً بالنظر إلى ساعة يدها تارة ثم تنظر خلسة فتجدنى أُطيل التحديق بها. فتتنابها حالة من الإستغراب. قد دابره العامل المشرف على قاعة العرض:-

-من الممكن الدخول الأن إلى القاعة.. سوف يبدأ الفيلم خلال دقائق.

وتلاقينا عند باب الدخول فى نفس اللحظة .فإعتذرت بلطف مع إبتسامة رقيقة صادقة. وسمحت لها بالدخول. ولم أتلق سوى إبتسامة جيدة الصنع. وتفرق كل منا فى إتجاة لكى نصعد السلم المفضى إلى القاعة. وتلاقينا بالنظرات مرة أخرى عند إنتهاء السلالم المؤدية إلى المقاعد. فتسير هى فى الطرقة بين المقاعد المرصوفة أقصى يمين القاعة وعلى يسارها المقاعد المرصوفة فى وسط القاعة والشاشة أمامها. فى نفس الوقت الذى أسير فية أنا

بالطرقة بين المقاعد المرصوفة فى أقصى يسار القاعة وعلى يمينى المقاعد المرصوفة فى الوسط وأمامى شاشة العرض. ولم نتخل عن النظرات المختلسة إلى بعضنا البعض خلال رحلة السير بالطرقة بين المقاعد وكأننا نسير على أنغام موسيقى تضفى علينا حالة من الونس. نقف أمام أحد الصفوف فى وسط القاعة فى لحظة واحدة، ويجلس كل منا على الطرف الأخر من نفس الصف ونحن فى حالة من اللاوعى وكأننا فى فيلم أخر. تطفئ الأنوار، ويبدأ الفيلم، ولم يزل مسلسل النظرات بيننا مستمر. ويتابع عامل غرفة تشغيل الفيلم كل مايحدث فى إندهاش وصمت من نافذة فى أعلى القاعة. وتتلاقى نظراتنا فى أكثر صراحة وجرآة ثم تتبعها إبتسامات فى شئ من الرضا والإستحسان. وكلما مر وقت من عمر الفيلم تقل المسافات والمقاعد بيننا، وأضحى لايفصل بعضنا عن الأخر شئ. فإختلطت الأنفس فى إنسجام وود، وتبادلنا بعض كلمات التعارف تخللتها بعض الضحكات، وأعلنت شاشة العرض إنتهاء الفيلم . ودوى صوت تصفيق حاد إهتزت لة أرجاء القاعة الخالية. فإلتفتنا إلى الخلف فى نفس الوقت لنتابع مصدر الصوت، لنجد عامل غرفة تشغيل الفيلم يطل من نافذة غرفتة العالية وقد إستبد به حالة الإنتشاء والتصفيق والتصفير.

(3)

أحكمنا معاطفنا حول أجسادنا إتقاء البرودة. ولم أشعر بطول المسافة من السينما إلى منزلها. وتبدل طعم الشتاء الحزين ببهجة ذات مذاق هنئ مرئ، ونسيت كل شئ فى صحبتها كالخواطر، وكاتبتها، وحتى بائع الكتب. وأصبح القلب دليلِ وتلاشى العقل إلى بحور اللاوعى. ولم أشغل بالى بما طرأ من أحداث. فحسبى اللحظة التى تمنيتها وأعيشها الأن. فالمحروم لايشعر بالعالم من حولة فى وجود شخص طال إنتظاره. ومضى الوقت، ومضغنا الطريق ، وتوقفت خطواتنا أمام منزلها. وتبادلنا كلمات الوداع المؤقتة ممزوجة بإبتسامات صادقة تكسو الوجوة. وفرضت عليها لقاء الغد ولم تعترض. وسارت مبتعدة، فتلاشت بعمق مدخل العمارة.

(4)

صك الهواء الليلى نافذتى بعنف، فأخرجنى صوت إرتطامة من إنسجامى داخل القصة. فتركت القلم، ورمقت قطرات المطر المتراكمة على زجاج النافذة كلوحة فنية تسر الناظرين ولاحظت أن أبطال قصتى تحركوا كريشة فى مهب أهوائى، وأحسست بضألة نفسى أننى ريشة أكبر فى رواية أكبر. وتبدلت علامات التفكير إلى سعادة إرتسمت على ملامحى لما أضفيته على أبطال قصتى من النشوة وكسر حالة الملل بأحداث ليست فى حسبانهم. وتقمصت دور القادر على تبديل الأحوال. فتبدل حالى دون قدرة منى، وإنسحب كل مايوحى بالسعادة إلى الوراء. وتكدرت ملامحى لرؤية العشاق السائرين فى دفء تحت "الشماسي" خلف نافذة المقهى الذى أمكث به، وأحسست بمرارة الوحدة تلقم حلقى، فأتيت على قدح الشاى أمامى فى فم واحدة لأذهب عنى طعم الحنق. وحملت الأوراق داخل حقيبتى، وغادرت المقهى مشوش الفكر، يحاوطنى سواد الليل وبرودة الجو. وأدركت بأن ماكتبتة لايعبر سوى عن مكنون نفسى ورغبة منى فى الوثوب عن اللحظة بقصة قد يقرأها أخرين عند النشر فتجمعنى بمن لم أتوقع لقاؤه. ووطأت أرض الواقع لأكمل قصة اخرى أنا أحد أبطالها منتظراً مايخبئة لى كاتبها.

"تمت"

"شهيد بحر الوعى"

(1)

إتصال واحد يغيرنا. دقة جرس واحدة تحدد أقدارنا ومصائرنا. الجميع فى حالة من الصمت والترقب. ولا صوت يعلو فوق صوت الإنتظار. ذبابة تحوم حول لمبة متدلية من السقف آبت أن تخضع لقوانين الصمت. أرمقها فى شئ من الشرود ينم عن حالة من التفكير العميق. يتشتت بصرى يميناً ويساراً دون قدرة منى على التحكم. فأرمق والدتى المتكئة على أريكة خشبية متلفعة بملابس اليأس والحزن. ترمقنى فى صمت بنظرات أتحسسها بلا إعتراض. وأختى.. وردة الأمل الباهت فى مجتمع أصابة العبوس. تجلس إلى مقعد جانب والدتى فى إنتظار دقة جرس تغير أقدارنا. أنطوى كل منا على نفسة محتمياً بأفكاره. فلايعلم أحدنا بما يدور بخلد الأخر، فالكل أولى بما يدور بخُلده حتى يتحدث بما يضمرة. ويزوغ بصرى إلى حوائط الغرفة نازعاً عنى حالة الإنتظار. أتأمل تجمعات الكلمات الصغيرة المكتوبة على الحوائط المصابة

بالشروخ والعجز. أُدقق النظر فيما كُتب. فيلقى المكتوب بظلالة على أيام المراحل المنسية. لم أستطع مشاطرة رغبة داخلى تدفعنى للإقتراب من موضع الكلمات. فحسبى النظر إلى موضع الكلمات فاعرف فى أى مرحلة كُتبت. فإلى الحائط المواجة للمقعد الذى أجلس علية هناك بعض الكلمات المليئة بالبرأة والنقاء دون هموم أو خوف من الغد، ومشاعر صافية وحب لمجرد الحب. يستهوينى العودة إلى الذكريات فضلاً عن الإنتظار. فأتجة صوب الحائط المنتصب خلفى حيث مرحلة أخرى فى إرتقاء سلم البلوغ وموثقة بمشاعر الشعراء تجاة أحبابهم. أُدقق النظر إلى الشعر المكتوب ثم أُتمتم:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى

فكن حجراً من يابس الصخر جلمداً

ثم أعتدل فى جلستى منتشياً مما قرأتة على الجدار، وطاف برأسى كل خطوة فى صحبتها كان فيها من الجنون والإندفاع والحب الممزوج بمتطلبات المجتمع. أتجة تلقائياً بالنظر صوب إحدى "ناطحات السحاب" التى أقيمت مكان بيتها الذى تم إزالته. هناك كانت شرفتها التى تطل منها كالقمر، وتتجاوب إشاراتها

باليد مع إشاراتى المتكرره ومن ثم تبدلت حتى أمست الإيادى تتلاصق على مرآى ومسمع من العالم من حولنا فيما عدا الأهل. تذكرت كل ذلك وكأن أصبعى قد أدار زر المسجل، فأعاد شريط علاقتنا ولكن اليوم لا شرفة ولا بيت ولا حبيبة. فقد غادرت مع الزمن البائد لتلك المرحلة وإنتزعت لنفسها حياة أخرى.اليوم ليس كالأمس. فالنفوس تتبدل والأفكار تتغير، وتحتل المادة مكان الحب. فقد تغيرتُ تلقائياً مع المجتمع وطويت كل مراحل الحب المنسية مع كتابات الجدران ولن تعود سوى فى حضور الذكريات.عقارب الساعة تشاطر الذبابة كسر الصمت، يتبعها صوت هاتفى الشخصى، أُمسك به فى سرعة، تطفو السعادة على وجهى ثم أتحدث:

-وصلتِ!.. مسافة الطريق.

(2)

نظرة واحدة إلى النيل من قمة عالية خير من ألف نظرة إليه وسط طوفان المتزاحمين على الكبارى والمتكدسين فى مراكب الموت النيلية. تتطاير فوق شريانه أسراب الحمام فى شكل بديع، تُصيبنى بالقشعريرة وتجعلنى أكثر إقبالاً على الحياة. لم يقطع التركيز سوى لهجتها العربية الناعمة التى لاتشى بتلك المرحلة العمرية من أواخر العقد الرابع الذى يغلف جسدها، تتحدث إلىَّ فى شئ من الهمس:

–حقاً ليس فى جمالة شئ.

التفتُّ إليها ناسياً جمال النيل، أحملق إليها فى إعجاب، تتحرك حتى تضحى بين مجلسى ومجلسها الذى سوف يكون نصيبها. أنظر إلى ملبسها الأنيق الذى يغلف جسدها الممشوق الذى يوحى برغد العيش وقلة الهموم. وما لحظات حتى أفوق من تفحصى الذى طال على همسها:

–الآ تسمح لى بالجلوس.

فى حركة لا إرادية، أترك مقعدى، أتجه إلى مقعدها المقابل ثم أجذبه إلى الخلف "لزوم الإتيكيت" تاركاً خلفى نظام عشوائى دائماً ماكان أسلوب حياتى. تجلس فى رقة، تسوى خصلات شعرها بأنوثة مفرطة، أتأمل كل ذلك مقارناً بين الحقيقة وصورتها التى رآيتها عبر الإنترنت. يفتر ثغرها عن إبتسامة تكسو وجة لا يزال متشبثاً بحلاوة الشباب، أتبعت الإبتسامة بحديث جذاب كوجهها:

-مندهش. وكأنك لم تتخيلنى هكذا.

-الحق إننى تمنيت أن تكونى أحسن من مارلين مونرو.

يبدو عليها الإندهاش الممزوج بإبتسامة ثم تتحدث فى دعابة:

- تمنيت بصدق فاستجاب القدر.

ثم فى جدية ممزوجة برجاء:

-بداخلى أمنيات كثير فهذة أولى الامنيات.

-اتركها للأيام ودعنا نستمتع باوقاتنا.

ثم فى فلسفة ممزوجة بإبتسامة مشرقة تكمل:

–فالذى كان خيال بالأمس تحقق بعضة اليوم. فإنتظر الغد.

أعجبنى حديثها الذى ينم عن عقل لدية من الحنكة ولسان فصيح يقطر بالحكمة وشباب قد هم بالمغادرة، تحاول إعادتة بشتى القوى. راغبة فى أن اكون أحد أسباب إعادتة. يضع الجارسون أمامنا أطباق الطعام المختلف ألوانه، يبدأ كل منا فى تناول طعامه فى صمت يتخللة الإبتسامات المتبادلة، ومابين ذلك وذاك أهوى فى اللاوعى كرة اخرى محاولاً التفريق بين الواقع والخيال، ونعيم الجنة وشقاء الدنيا. فإلى أمامى حور من الجنة وإلى جانبى شرفة تطل على نهر من أنهار الجنة وأشهى الاطعمة يتلوك بها فمى. فإذا كان فى وسع المرء أن ينعم بكل ذلك فلما نفكر بالآخرة بل نتركها للفقراء الزاهدين قليلى الحيلة والمال. يمر أمام ناظرى مركب نيلى يحمل عشرات الاشخاص من بسطاء الأحلام ثم يتلاشى المركب وأفيق لأطأ أرض الوعى ناظراً إليها وهى تتحدث:

–ولكنك فى الحقيقة لست كما فى الفيس بوك.

يظهر على وجهى الإستغراب تتلمسه ثم تحاول توضيح ماتعنيه:

–لاتفهمنى بشكل خاطئ.. أعنى فى ملامحك شئ من الخجل.

-إنه خجل اللقاء الأول فقط.

نتجاذب أطراف الأحاديث المختلفة، تتلاشى الكلفة بيننا، تتلاقى الأرواح فى ملكوت المكان، تفض إلى ماتكنه فى صدرها المكتنز من مآسى الحياة التى طالما حاولت إخفاؤها بشئ من السعادة المرسومة على وجهها. تجد فى صحبتى مايسرها. وأجد فى قربها ما يغير حياتى. ومن هنا تم الإتفاق اللامنطوق على أن نترك أنفسنا للأيام. أُكمل لها سعادتها وتحقق لى أُمنياتى.

(3)

أخيراً.. نمكث إلى جانب بعضنا البعض داخل عربة الحنطور، بعد يوم طويل فى أماكن مختلفة، والأصداء المتنوعة الممزوجة من شتى الإنفعالات والمشاعر والأحاسيس المختلفة. وتلاقت روحان من عمرين مختلفين فى شئ من التفاهم، ونظرات خاطفة تفضحنا تنم عن مشاعرنا تجاة بعضنا، ولم يخل ذلك من نظرات إلى سائق الحنطور الذى آثر الإستسلام إلى عالم خاص به. وفى شئ من التشجيع إستسلمت عيناها بنظرة ناعسة معبرة عن رغبة فى الإحتضان، وتملكتنى رغبة فى الإحتواء والتدفئة وإستجابة لندائها. فمع مرور العمر والحرمان تنفجر المشاعر المكبوتة. خيم الظلام علينا، وإلتصق فمى بفهما الصغير فى قبلة سريعة علها تطفئ شوقى ورغبتى، وحطت الأيادى على ما تهوى لمسه وزادنى ذلك إحساس بالإستمرار. ولم يقد دابر مشاعرى سوى الوقوف المفاجئ للحنطور أمام العنوان الذى ألقمته للسائق. أحكمت معطفها الرمادى حول جسدها مع نظرات تشى بسعادة غير مكتملة ثم مددت يدى لأودعها ولكنها لم تتركها لحال سبيلها فوجدتنى جانبها أمام البناية التى تطل على صفحة النيل . وإنطلق الحنطور..

(4)

-شكراً لكِ.. فقد مضى ما مضى من العمر ولم أذق مثل ذلك الإحساس.

تضع رأسها إلى صدرى ثم تتحدث وهى تداعب الشعر النابت فى باطنى:

-بل الحق إنك من يستحق الشكر.. فكم مضى من العمر وأنا وحدى بين الجدران.

ثم أتساءل فى فضول:

-وإبنك؟.!

تعتدل فى جلستها على الفراش لتصبح ممددة إلى جانبى وتستند برأسها إلى وسادتها، تشعل سيجارة ثم تتحدث وكأنها تستعيد ذكرياتها:-

-تزوج وعاش حياته وتركنى أُكابد الموت البطئ.

تنفس الدخان الذى ملأ صدرها فى عنف يشى بحالة الحزن التى تكتويها، أحس بها ثم أضمها إلى صدرى مرة أخرى هامساً ومهدئاً لها مع قبلات متقطعة على الرأس:-

- أليس فى جانبى شئ من روح الحياة.

تبتسم فى شئ من المجاملة:

- بل أنت الحياة كلها.

تغادر الفراش متجهة ناحية المرآة المقابلة لنا، تجلس إلى مقعد المرآة، تهندم نفسها حتى تستعيد كامل آناقتها، تلمحنى أرمقها بنظرة جادة، تتحسسها فى جسدها ثم أتحدث:-

-كم بقى لكٍ من الوقت هنا.

-أعرف إنه قد مضت الأيام بسرعة وهذا سر حزنى.. ولكن بقى يومان سوف نتمم بهما سعادتنا.

أقتُرب من مجلسها ثم أصبح وجهاُ لوجة معها مستنداً إلى المرآة بذراعى ثم أتحدث:

-ألا تحتاجينى إلى جانبك كل العمر.

-بلى.. ولكن كل أموالى وحياتى هناك.

-بإمكانك نقلها هنا في القاهرة إذا أحببتِ.

تنظر إلىَّ فى حيرة تجتاحها بين رغبة فى السعادة ورغبة فى العودة إلى حياتها الأصلية ثم تغادر مقعدها متجهة صوب الشرفة المطلة على النيل ثم تتحدث:-

- أعلم أن من حقك أن تحيا. ولكن..

أترك مكانى فى سرعة تتحسسها ثم تلتفت لتجدنى أقف أمامها ومقاطعاً لها:

- أو نسافر معاً.. ونعمل معاً ونبقى إلى جانب بعضنا.

تتحدث فى تردد:

-الامر ليس بيدى وحدى، فهناك قواعد وعلاقات تدفعنا للتمهل. فأنا أريد السمعة الطيبة.

تلحظ فى عيناى بريق الدهشة والإستغراب ثم تكمل:-

- كلانا فى إحتياج لشئ منحة كل منا للاخر.

تبدو على وجهى إبتسامة ساخرة:-

- أعطيتك بعض أيام شبابى.

ثم تكمل:

-وأعطيتك المال وكلانا تمت له السعادة.

-لا.. فالمال لاينقص لديك ولكن عمرى الذى مضى لن تعود أيامه.

-وكم مضى منة من قبل أن تلقانى دون شئ تتفاخر به.

كان حديثها سكيناً حاداً فأصابنى بجرح عميق، وشعرت هى بوقع كلماتها لما بدا على وجهى من تغير، تنهدت فى إحساس بالذنب، ونظرت إلى صفحة النيل من وراء الشرفة، وسادت حالة من الصمت ثم أشعلت سيجارة مرة اخرى، وتحدثت:-

- ألا يكفيك قدر من الأموال تعينك على مواصلة الحياة.

آلتفت إليها ثم فى كبرياء لحفظ ماء الوجة ممزوج برغبة داخلية فى الوصول لأكثر من ذلك:-

- لا أحتاج لمالك.. فأنا احسست بالسعادة بصحبتك. من السهل أن نجد شخصاً نتحدث إليه ولكن من الصعب أن نرتاح لأى شخص.

أتحرك لأقف أمام المرآة ثم اتحدث:-

-ولكنى سوف أعيد حساباتى.

إرتدي ملابسى فى صمت لم يتخلله سوى نظرات خاطفة خلسة منى تجاهها وأخرى منها تجاهى، ألمحها فى المرآة وهي تزفر دخان سيجارة تمسكها بيدها ثم تحدثت:

- قد مضى شهر على علاقتنا.. آلست فى إحتياج ليومين آخرين من السعادة؟. قد تتغير أفكارنا وتلين.

أنظر إليها فى المرآة ثم أكمل ملابسى معطياً ظهرى إليها وما لحظات حتى أحسست بأنفاسها فى ظهرى، أتبعتها لمسات ناعمة ثم التفت إليها حتى أمسينا وجهاً لوجة، تهندم ملابسى بيدها وتهمس:

- ميعادنا الغد.

أتنهد، أبتسم إليها إبتسامة فيها من الشكر والإعتزاز لنفسى ممزوج بكلمات المجاملة المصطنعة، فأقبِّلها قبلة طويلة لم يفيقنا منها سوى دقة جرس واحدة .

(4)

يتغير العالم من حولى، فتتبدل الشقة الآنيقة التى تطل على صفحة النيل بشقة ضيقة الحجرات، تحاوطها الشقوق من كل جانب، تطل على شارع عشوائى ضيق تئوح بيوتاته القديمة على بيوت كانت جانبها بالأمس، وتتكئ اليوم على أبراج حديثة أُقيمت مكانها. تجمعت مياة الصرف أوسطة فى بحيرة واسعة يعبرها السائرون بواسطة ألواح خشبية. أرمق ماكنت أتحاشى النظر إليه ببصر من حديد . لم تزل والدتى جالسة إلى أريكتها. لم تتغير ملامح وجهها الذى يعلوه اليآس والتقزز لرؤية أصحاب العمارة. الذين دقوا جرس الباب فأفاقونى من أحلامى على واقع مرير، هولاء من كانوا بالامس لا شئ .أمسوا اليوم كل شئ .فقد توقفت عقولهم عند المال فقط، وأدركوا نظام المجتمع وساروا كأحدى تروسة ونزعوا عن أنفسهم ملابس الإنسانية ودهسوا كل من لة قلب، وأضحى لايدور بخلدهم سوى كيف يكنزون المال فى ظل نظام ليس بنظام؟. حالة من الصمت تغلف المكان. يبدو على أحدهم من الإهتمام بنفسة ما ليس بالأخر. يداعب مسبحة بيده ممزوجة بتمتمة، ويجلس إلى جانبة شقيقة الضخم الذى يضع عقله فى بطنه، يرتدى جلباباً بلدي بفتحة طوبلة، نتحاشى النظر إلى بعضنا البعض فى إنتظار كلمة تقطع الصمت. تأت أختى

الصغيرة حاملة صينية تعلوها أقداح الشاى السادة. يتناول الرجلان اقداحهم. تبودلت أصوات إرتشاف أقداح الشاى فى أيديهم مع إنطلاق الأحاديث المختلفة ثم تحدث الرجل المهندم:

- من الأصلح أن نتوصل إلى إتفاق يرضى جميع الاطراف .. فما الرآى؟.

تتحدث والدتى فى إستعطاف ممزوج بحدة مصطنعة:-

- من الصعب أن يترك الانسان المكان الذى عاش فيه عمره، ليس للذكريات التى لم تضعها نصب عينيك ولكن لغلاء السكن.

يضحك المعلم الضخم ضحكة إستهزاء ثم تحدث المعلم المهندم:

- الكلام ده مش حقيقى.. فنحن غادرنا الصعيد ولانملك الإ قوت يومنا ولكن اليوم..

ثم يسوى هندامه وشاربه ثم يكمل:

- الحمد لله مستورة.. فهذة أحاديث لاجدوى منها.

أخرج عن صمتى و أتحدث فى جدية:

- وإن لم نغادر.

يتحدث المعلم الضخم موجهاً حديثة إلىً في جدية ممزوجة بسخرية:

- أنت تعلم أن البيت قديم وتسبح تحتة مياة الصرف الصحى. فمن المحتمل بل من المؤكد أن يهوى كما هوى غيرة وفى تلك الحالة لن تأخذوا شيئاً.

تخرج والدتى عن صمتها ثم فى شئ من الحدة:

- لم ينالة شئ من زلزال ٩٢ . ولكنكم تمكرون ويمكر الله.. فالله غالب على أمره.

يتدخل المهندم فى الحديث بعدما صوب نظرة غاضبة تجاة شقيقه فألزمته الصمت ثم فى هدوء ممزوج بمداعبة لمسبحة يده:

- لا نريد إغضاب الله ولا نريد الضرر لأحد.. بل نريد الإفادة للجميع، فلا ضرر ولا ضرار.

ثم فى ترقب:

-ما رأى سكان البيت؟.

–يريدون الخروج اليوم قبل الغد.

–وما المقابل المتفق علية؟.

–أعطنا كلمتك الأخيرة.

أرمق والدتى البائسة وشقيقتى الصامتة ثم أنظر إلى المكان من حولى وقد إجتاحة العجز والرضوخ ثم أتحدث فى نظرة متحدية:

–نريد أن نحيا حياة كريمة فى ظل الغلاء المستشرى

"تمـــت"

"ثمن التعود"

(1)

أكاد أضبط ساعه يدى على ميعاده. فبمجرد أن تدق الثامنه صباحاً أراه ماثلاً أمامى. يقف مختال بنفسه فى ملابسه الأنيقه. يخفى عيناه خلف نظارته السوداء، يمسك كتاب يدس نفسه بين صفحاته – حين يركب الميكروباص – ولا يعبأ بمن حوله. أرمقه بنظره مختلسه، فأراه مسدد النظر نحوى فلا أعلم هل يرنو إلىَّ أم ينظر إلى المطلق؟!. وودت لو أنزع نظارته فأتشبث باليقين. أثارت هيئته ورؤيته الدائمه بداخلى الفضول. وأضحى مع مرور الأيام ضمن قائمة الأشياء التى تعودت عليها فى الصباح. وأمسى عادة بغيابها يصيبنى شئ من التشاؤم. فبتُ بلا إرادة أنتظر ميعاد إلتقاؤنا. وهيأت نفسى لما سيستجد من أحداث. ذات يوم. وقفنا ننتظر قدوم الميكروباص وسط طوفان المتزاحمين. وما أن نراه قادماً حتى نستعد ونتأهب لننندس بداخله. وحاولت أن أتعلم منه فن إنتزاع مقعداً وسط المتكدسين. ولكن دائماً ماتبوء محاولاتى

بالفشل. وينقض هو فى دهاء ورشاقه، ويتخذ لنفسه مقعداً مثل كل يوم، وتبدو فى عيناه المصوبه خلسه ناحيتى – بعد أن ينزع نظارته – رغبه ملحه فى الحديث. ولكنه سرعان مايتكدس الميكروباص ويشرع فى التحرك. ويدس عيناه فى كتابه. ولكنه اليوم نزع نظارته، ووضع الكتاب على المقعد الخالى جانبه ثم أشار نحوى وتحدث بجديه:-

- تفضلي، المقعد محجوز لكٍ

فإنطلقت نحو المقعد الخالى جانبه دون تفكير وسط نظرات الضجر ممن حولنا، وشكرته فى هدوء. فبادلنى الشكر بالإبتسام مع بعض كلمات المجامله. وبدأ يقلب صفحات الكتاب بين يديه بطريقة عشوائيه وكأنه يفكر بشئ ما. وهيئت نفسى للحديث. فلا أكاد أصدق ماحدث. هل حدثنى فعلا أم ذلك ماتمنيته؟!. وهل فعلاً ركبت أم لا؟. ربما تكون رغباتنا الملحه لحدوث الأشياء هى التى تدفعنا للتخيل حينما نعجز عن تحقيقها فى الواقع. وآثر أن يغرقنى فى الواقع فإنتشلنى من بحر الأسئله التى تدهسنى، وتحدث بلهجه هادئة مترددة:-

- حجزت لك مقعداً بالأمس.. فلم لم تأت؟.

فاجئنى حديثه. فعاجلنى العقل بإجابه عفويه غير مخطط لها، وبدا الصدق على وجهى:-

- كان الأمس عطله رسميه بالعمل.

فأومأ مؤكداً وكأن أفكاره تشتت من سذاجه الأجابه. وأحسست بهدوء سرى بأوصالى. وتملكتنى رغبه فى الحديث فتحدثت:-

- كم تمنيت أن أتعلم منك مهارة الإنقضاض داخل الميكروباص. فأنت تفعلها وكأنك تخطط كقائد معركة.

- لدى خبره منذ الصغر فى تسلق عربات النصف نقل.

ضحكنا، ولم نهتم بالجالسين من حولنا ثم تحدث فى جديه:-

- إن لم نفعل ذلك فلن نذهب إلى أعمالنا، فالحياه تجبرنا على التغيروالتنازل.

فأكدت على حديثه دون إراده. وإنسجمنا فى حديث طويل، كنت دائماً المستمعه له، فكان ذلك أحب لدى من الحديث. وبدا لى صفاته وأحلامه التى دائماً كنت أتمناها فى شريك العمر ووجدتها فيه. فأسررت أعجابى بها فى نفسى ولم أبوح بها كشأن إعجابى

بتلك الحسنه التى تسكن شفته العليا. إنفرجت شرفه الميكروباص، فغمرتنى موجه عاتيه من هواء الصباح. فنظرت إلى الطريق تاره ثم إلى صفحات كتابه المنفرجه بين يديه وإلى أصابع يديه الخاليه بما يربطه تاره أخرى. وكستنى بهجة غير متوقعه فى ظلال الصمت المحتمى بنا. وبدا لى أن صفحات الكتاب ثابته ولم يتم طيها. وأحسست بنظراته التى توخز كل موضع من جسدى متفحصه. وتأكد لى شعور بأن كتابه ستار يتوارى به عن رغبته فى خلق مواضيع جديده للحديث، كتلك النظاره التى يتوارى خلفها سهام نظراته. وقررت أن أخفى دبله زواجى مع إخفاء شعورى بالذنب، وإبداله برغبتى الملحه نحو الخضوع لرحله جديده محركى فيها القلب. إنقضى الطريق، ووصلنا إلى نهايته، تغلفنى حاله من الإنتشاء لم أستطع أن ألجمها، فقد غشت كافة جسدى. وودعنا بعضنا بكلمات توحى بالسعادة. ونحن نعد بداخلنا حوارً كاملاً للغد. ولم ننس ماحدث اليوم أو بالأخص لم أنس أنا ما أستجد. وإنتظرت الغد المتعود عليه دون تفكير فى عواقب الإنسياق وراء شطحات القلب

اليوم قليل الإزدحام. تتراص العربات إثر بعضها البعض فى إنتظار من يملؤها من الركاب. ولأول مره إستطعت أن أحجز لنفسى مقعداً دون قدرة على التخطيط والدهاء. وجلست جانب

الشرفة أنتظر ظهوره. مر الوقت سريعاً ولم يأت. فملئنى إحساس بالشك تجاه ساعه يدى خيفة أن يكون قد أصابها شئ من التأخير. فتسألت للتأكد عن الساعه. وإتضح أن ساعه يدى على أتم ضبط ولم يصيبها شئ. تملكني الخوف من إمتلاء الميكروباص، وإستعداده للرحيل دون أن يأت. وتضيع ساعات الأرق قبل النوم وكثرة التفكير فى خمول الليل. وأحسست بإختلال يومى، وإمتطانى التشاؤم. إمتلأ الميكروباص عن آخره فيما عدا مقعداً خالى بجانبى أشغله بحقيبتى. أتابع وجوه النازحين من الشوارع الفرعية بإتجاه الطريق العام. فلم أراه ماثلاً أمامى. ويصيبنى صوت السائق الأجش بالحنق حين يهتف:-

- أثنين كدة ياأستاذة؟.

فأومأت بالإيجاب إلى نظرته المسددة نحوى فى المرآه، وأملاً فى حلوله باللحظات الأخيرة. وتحركت العربة تحمل جسد بلا روح. فقد آثرت الإنتظار عند الشارع المحتمل إطلاله منه. وجالت بداخلى الأفكار وإفترستنى بلا رحمه. هل لاحظ دبله الزواج فآثر الإنسحاب بعد إحساس الذنب؟!. وإن كان فلما لم يخطرنى بما نما فى عقله وبما قرره. فأدركت أن الحديث بيننا لم يطول حتى يخبرنى. وربما هى أحاسيس نمت بداخلى فقط. ولم يكن لى شئ،

ولعنت ماوصلت له حين إستسلمت لما طرأ على حياتى وإنسللت فى طريق القلب. وبدأت أفند حالتى بعين العقل. فإتضح لى أن ما أفعله خطأ. وإقتنعت إقتناع تام بالعدول عن ما أقبلت عليه منذ أن بدأنا نتلاقى فى الصباح، ومنذ أن تحادثنا بالأمس، وأصبح جزء لايتجزأ من تفكيرى. ولكن سرعان ما تحل ذكرى أول يوم أراه فيه وأخر حديث تحدثناه بالأمس فأعود فريسه للضيق من عدم مجيئه. هل حقاً أحبه أم تعودت عليه؟. دائماً ماكان يلح ذلك السؤال على عقلى ويؤرقنى. وإستسلمت لإستذكار كل ماحدث فأعزى نفسى به تعويضاً لغيابه تاره وتشجعت على الإستجابه لنداءات العقل والضمير فحاولت نسيانه تاره أخرى مؤكدة لنفسى أنه أجلاً أم عاجلاً ستكون بحياته أخرى. إنقطع صراع الإفكار حين رسى الميكروباص بالموقف إثر السيارت المتراصة. وإندفع الراكب تلو الأخر خارجه. وصرت فى ركبهم مثقله بالحزن والضيق. وما أن وطأت خارج الميكروباص حتى رآيته ماثلاً أمامى، يختال فى ملابسه الأنيقة بدون نظارته السوداء. يبدو عليه الإنشغال والترقب ثم تبدل حاله حين رآنى لترتسم على وجهه إبتسامة تسع الدنيا. وإنخلع قلبى من ضلوعه منتشياً بنسمه صباحيه مع قدومه. فزكمت أنفى وإنتابتنى قشعريره. وإقتربنا بإتجاه بعضنا. وتناسيت التفكير مع أول كلمه تفوه بها:-

- إعتقدت بإنكٍ من تأخرتِ. فوجدت أن ساعه يدى أصابها التقدم. فآثرت الإنتظار حتى أراكِ.

تهللت أساريرى، ولم استطع التعبير سوى بالإبتسام. وتلاشت الاسئله التى حاوطتنى خلال رحله الطريق وأردف :-

- ما رآيك أن نتنزه اليوم. فلا طاقه لى اليوم بالذهاب للعمل.

وبلا حول ولا قدره على الإعتراض. تحول طريقى إلى ساقيه الصاوى. فمكثنا على حافه النيل نستمتع بأشعه الشمس المرتسمه على ثوبه فى شئ من اللمعان وكأنه يتبختر بفستان سهرة. وآبت عقولنا أن تنغمس فى أحاديث تضفى حزناً على جلستنا. وإنسللنا خلف شعور قلوبنا فى الحديث عن أحلامنا ومستقبلنا والإستمتاع باللحظات الحاضرة. وتساءل:-

- ماذا حدث لكٍ حين لم أأت؟.

- أحسست بأن دافع ما أثناك عن المجئ. فآثرت الإبتعاد.

- الحق أنه يؤرقنى أن يخدع شخص ليس له ذنب، ولكننا لم نخطط كل ماحدث، فالقلوب متقلبه وليس لنا عليها سلطان.

- كنت فيما مضى لا أؤمن بتلك الجمله، وإننا من نتحكم فى عواطفنا، وإن الضعف هو مايجلب لنا المتاعب، كل ذلك قلته عندما سمعت قصة أصدقاء لى بالعمل، جمعهم المكتب جانب المكتب، ربطهم العمل، والإطمئنان فى الغياب، والتعود والإرتياحيه فى الحديث ومن ثم الحب الذى نما دون قدره منهما على الإستيقاظ من سُكرته.

- وماذا حدث لهم؟.

- حاولوا إخفاء الحب خلف قناع الصداقه.

- ومارآيك أن نكون مثلهم؟

فأومأت بالإيجاب، وإطمئن قلبى لتلك المظله الزائفة التى تختبئ إثرها وخزات الضمير. وتبادلنا أحاديث ومشاعر شتى خلال جلستنا وتناسينا إحساس الذنب. وأحسست بأننى مسحوبه بلا رغبه فى المقاومة. فأطلقنا لأنفسنا العنان ولم نلتزم بذلك الإتفاق الوهمى الذى يعرف كلانا أنه "فشنك". نظرت فى ساعه يدى فقد تأكد لى إنه ميعاد الإنصراف من العمل. فغادرنا المكان فى هدوء متشابكى الأيدى يغلفنا الإنتشاء والحب. ولم نتفق على ميعاد أخر فكلانا يعلم أن الصباح خير من ألف ميعاد.

(2)

تبدلت مشاعر البهجه إلى حاله من التبلد مع رؤيه حشد كبير من البشر يملأ الشارع. ويحلق الوجوم وجوه الخلق. وتتهاوى الأيادى المرتطمه ببعضها البعض فى حسره وحزن. الأطفال يهرولون وسط المتزاحمين، يتناقلون الخبر كالعلقمة فى الأفواه. غيرت جلدى مع تغيير الجو العام. أحسست بالرطوبه تملأ الجو بينما لم أشعر بها فى الصباح، والعفار والأتربه تغطى المنطقه العشوائيه التى أقطنها. وتتراكم قطرات العرق على الوجوه والملابس الممزوجه بالأوساخ. صرت وسط التجمعات البشرية، أسترق السمع فيترامى إلى أذنى كلمات مجهوله يرتاع لها قلبى:-

- رجل مقتول فى حوش عماره رقم ١٨.

- من قتله؟.!

لا أعرف هل السؤال نبع من داخلى أم تفوه به أحد الحاضرين؟. وأخرجنى من تفكيرى صوت عربه الأسعاف فإنتبهت وتابعتها تشق الطريق وتنذر الواقفين بإخلاءه، فتشقهم نصفين على الجانبين، فيتراصوا تحت البيوت التى تطل منها الرؤوس لتتابع

مايستجد من أحداث . وإنطلقت الآلسن بالسؤال، فلم تجد سوى إجابات مليئه بالشائعات وختمها عجوز ملتحى:-

- إن ربك لبالمرصاد.

شققت الصفوف لأكمل السير نحو مسكنى. وألقيت ماسمعته وراء ظهرى. وحاولت أن أنتزع نفسى من خضم الحدث. ولكننى سرعان ما تذكرت عماره رقم ١٨ حتى تشتت العقل. وأدركت لم كلما أقتربت من مسكنى يتزاحم الناس أكثر وأجد صعوبه أكبر فى الخروج بعيداً عن الحدث. فأنا أقطن عمارة رقم ١٨. عندها تقف عربه الأسعاف يحاوطها أهل المنطقه. وإنفرج باب العمارة، وند عنه رجال يحملون رجل يكابد لحظاته الأخيره، يمسك برقبته المحاطه بقطعه قماش ملطخه بدم مسفوح. وضعوا الرجل داخل السيارة. وإنطلقت مبتعده. وتقلصت المسافة بينى وبين باب العمارة. وشطح الخيال لإستنباط ماوراء الحدث . صرت بصعوبه نحو الباب، وما أن أصبحت ملاصقه لمدخل العمارة، حتى ترأى لى فتاه أعرفها جيداً - فى أخر العقد الثانى - تجلس على درجات السلم، تضع وجهها بين كفيها فى محاولة جادة لإخفاء وجهها عن الجميع . ويجلس على بُعد منها شاب فى منتصف الثلاثينيات إلى جانبها، يتوارى وجهه خلف الكدمات والخوف من

مصير مجهول. فتحولا بجلوسهما خلف قضبان الباب الحديدى إلى فقره يشاهدها الخلق وكأنهما حيوانات تستحق المشاهدة. وليس أمر من المشاهدة سوى الحديث والثرثره وتضخيم القصه عن حجمها. وإنتزعت روحى من جسدى رغماً عنى وكأننى تخدرت بسكرة لا أعلم منبعها. وبدأت أنظر بمنظورها فإرتعت لرؤيه الشاب وقد تقمص هيئه صاحب النظاره السوداء. فحاولت جاهدة أن أستنجد بكل شئ من المحتمل أن يعيدنى إلى جسدى. فأخذت أنظر فى ساعة يدى فى محاوله جادة للخروج من ذلك الكابوس. ولعنت القلب والتعود والإرتياحية ولحظات الضعف. وأحسست بأننى محاطه داخل سجن نفسى، وتخيل لى بأن مايدور حولى ماهو إلا نزاع الضميروالرغبة. صرخت. فربتت على كتفى زوج البواب، تحدثت:-

- تريدين الصعود يا أستاذة؟.

لا أعلم هل سمعت صراخى أم لم أبوح بما يعتمل بصدرى، وحين لم يعاجلنى اللسان بالحديث أردفت:-

- وجدها زوجها مع ذلك الشاب. فحاولا قتله. فهرب، ووجدناه يفرفر فى جلده بالحوش.

فتحدث أخر يسترق السمع:-

- إتصلنا بالحكومه. ونحن بإنتظارها.

إلتفت ناحيتها مرة أخرى، لا أعرف لما؟!. هل لأرتشف من هيئتها عظه ؟. أم لأدرك بأن عاقبه الإندفاع إثر الرغبات تؤدى للهلاك أم إحساسى بأنها فى حاجه لمن تستجير به فأجيرها. وشق الحشد شاب مفتول العضلات ثم وقف أمام الباب ورماها بنظره متفحصه وتحدث بدعابه:-

- تصدق فعلاً البت جسم وعود.

فضحك البعض، واحترم أخرين جلال الموقف، ومقتُ الجميع أكثر من الموقف، ولعنت نظرات المتلصصين الرامين بالنكات والثرثره. وعدت مبتعده عن المكان والعمارة وسط بعض النصائح المنساله نحوى وكأن الموقف أزال بيننا المسافات:-

- لابد أن تتركوا العمارة فقد أصابها سوء السمعه.

- ولاد الكلب نجسوها زى مانجسوا الشارع كله.

أكملت المضى وسط وجوه تعشق الخوض فى الأعراض. وتجد الملذات فى إختلاق القصص. وتراشقت داخل أذناى جمل حواريه ماأنزل الله بها من سلطان.

- أنا شلت جوزها على كتفى.. كان غرقان فى دمه.

- أنت أصيل وإبن بلد.

- وبنت الكلب بصت بره؟

فيضحك من فى صحبته. وإبتعدت بوجه يكسوه الحزن وقلب يتقطر بحنق أسود كقطع من الليل، وأنفاس تكاد تختنق من الكآبه. وإنتزعت نفسى من الشارع عائدة إلى لا مكان محدد. وشقت عربه الشرطه الحشد، لتلقى الستار على المشهد، ولكن يبقى أفواه لم تصمت فى خلفيه المشهد الكئيب. ونظرت إلى الشارع بعين ذائغه، وقلب مرتعد. وبدا يصغرالمشهد أمام عيناى، ولكنه ظل ماثلاً بحجمة الطبيعى فى ذاكرتى كاكابوس يوقظنى كصدمات كهربائيه حين يحل أمامى واقفاً بنظارته السوداء فى تلك الساعه من الصباح.

(3)

رآيته يقف مختال بنفسه فى ملابسه الأنيقة. ينظر من خلف نظارته السوداء. ينظر فى ساعه يده. يتفحص الناس من حوله كما يتفحصنى. أتلاشى النظر إليه. فيثير فعلى إستغرابه. أقبل الميكروباص، وإستعد وتأهب ليحجز كعادته ، ووضع كتابه على المقعد الخالى جانبه، وإمتلأ الميكروباص فيما عدا المقعد جانبه ثم وجه حديثه نحوى:-

- إتفضلِ.. المقعد محجوز لك.

لم أجيب، وتساءل السائق :-

- أثنين يا أستاذ؟.

فأعاد حديثه ناحيتى تحت ضغط النظرات المحدقه بنا، فتلاشيت النظر إليه، وإبتعدت عن باب السيارة، وبدا على وجهه الإندهاش والذهول، إنقض راكب أخر إلى المقعد الخالى جانبه. أغلق الباب، وإنطلق الميكروباص مبتعداً. فإلتفت نحوى من الشرفة غير مصدق نفسه. وترآى لى- وهو يبتعد - كحلم يتلاشى بحلوة ومرة.

وتغلبت على أيام التعود الفائتة بذكرى الخيانة التى ظلت تومض نصب عيناى وفي قلبي لتذكرنى بمصير مجهول لم أحتمل تأثيرة.

"تمت"

"أتوبيس نقل عام"

صوت الماتور أسفل الكنبه بأخر الأوتوبيس يقطع تفكيرى ويعيدنى إلى أرض الواقع غصباً. فأرى الحر بازغاً كاللهيب، وأشعة الشمس تخترقنا كالسهام، والعرق يتصبب منا، فيلجم ملابسنا ببقع متناثرة. والماتور الساخن يلدغ قدماى كالعقرب. فأنظر للجالسين على المقاعد المتراصه على جانبى الأتوبيس بحسد ظاهر. فقد أحتمى الكل بمكانه ولم يغادره، بينما الطرقه وسط المقاعد خاليه إلا من رجل أو أثنين آثروا الوقوف فضلاً عن الجلوس على تلك الكنبه أعلى الماتور الساخن بأخر الأوتوبيس. بقيت بمكانى، أتفحص الناس والأشياء من حولى لأعزى نفسى بطول الوقت ولدغات الحر. الوقت يمر بسرعة، والأوتوبيس ثابت بمكانه لايتحرك. على الطرف الأخر من الكنبه يجلس رجل خمسينى ينظر إلى المطلق بعين زائغه وإبتسامه تكسو كامل وجهه ولم يعبأ بمن حوله. وتوافد على المكان رجل فى الأربعين من العمر، يبدو عليه مظاهر التعب والجهد اليومى. ويعارك النعاس وجهه كالذباب. فيجرج من حافظته "أبونيه" ويعرضه لعينا

الكمسرى. أسترق النظر إلى ورقه فيتأكد لى أنه موظف حكومى خرج لتوه من العمل، وبدأ يبحث عن مكان خالى، فيُقبل إلى الكنبه مرغماً ويجلس أوسطنا. وأضحى فى مقابله الطرقة التى إمتلئت ببعض الأشخاص آثروا الوقوف عن الجلوس فوق تلك الكنبه أعلى الماتور الساخن بأخر الاوتوبيس.

إنفرجت أسارير الطريق، وتحركت العجلات بخطوات ثقيله كبطئٍ فى إتخاذ القرارات. فوطأت من النوافذ نسمه هواء صادقة طربت جسدى، وهفت فى رحابها إمرأة فى العقد الثالث من العمر. تخفى إثر عباءة سوداء جسد يفوح بالأنوثة، تطرزها بشريط ملون يحزم الوسط فيبرز مؤخرتها فى إعتراض. وآخر يحزم الصدر فيجابهك كالمتحفز للإنقضاض. تغطى نصف شعرها بحجاب يُبدى أكثر مما يخفى، ترسم حاجبان بطريقة شعبيه كتلك الحسنه أسفل شفتيها. دفعت ثمن التذكرة، ومضت بالطرقة الخالية لتثير الغرائز الثائرة فى يوم تنصب فية الأشياء بسرعة فائقة. فتطوع شاب طرأ علية البلوغ حديثاً بإخلاء مقعدة لها. فرمته بإبتسامه أحس بها تسرى بأوصاله. ولامست مكمن الشهوة فزاد بداخله الرغبة فى المزيد. ورماها بنظره ذائبه فتلاشتها بالنظر إلى الشرفة بغير إهتمام. ووقف أمامها يتأمل وجهها فحسدته وتمنيت أن أكون مكانه لأرتشف من وجهها الحليب رشفة ترطب حموضة الجسد،

وقررت أن أتقرب لها، وخير من ذلك أن يتنامى بيننا الحديث حتى السرير. فتفحصتها أكثر فأعاقنى ملبسها وهيئتها وظواهر بيئتها فنفرت منها رغم رغبتى فيها جنسياً. فوقعت فريسه بين رذانه العقل وشراهة الفرج. وعلا شخير الموظف جانبى كموسيقى نشاذ لايطغى علية سوى صوت الماتور الساخن اسفل الكنبه التى أمكثها. وترنحت رأسه لتستقر على كتفى،فإنتبه مستيقظاً وكأن شيئاً لدعه، وبدأ ينظر حوله بعين ناعسة ومتضايقة ولاعنه الحر والتعب. وقد بدا لى أنه يكابد معركه حاميه مع النوم. فهو يحاول أن يتلاشى الإستغراق فية بالتفكير فى تبعات الأستسلام له. فتبين لى أنه يغلبه تاره فيبقى مستيقظاً وتاره أخرى يغالبه النعاس فيستسلم له فى حذر

وتحرك الأوتوبيس بخطوات بطيئه، وترك معه أحد الجالسين مقعده، فأبدل الجالس إثر صاحبه العباءه السوداء مقعدة بالذى خلا، فهممت بعد لحظات من التفكير بالإتجاه نحو المقعد الخالى إثر صاحبه العباءه. ولكن سرعان ما سبقنى الشاب البالغ حديثاً، ليجلس خلفها على المقعد الخالى. ووفدت إلى المكان فتاه عشرينيه بصحبه والدتها مع من وفدوا من خلق الله. تتمتع بوجه جذاب مملوء بالتفاصيل، وعود فرنسى أصيل، فكل شئ عندها بمقدار. تبارك الخلاق. تمتمت بها دون إرادة. وفى التو

طويت صاحبه العباءه خارج نطاق العقل. وأخذت قرار أن تكون تلك الفتاه شريكة حياتى، وذاب قلبى فى عشقها من أول لحظه. وكعادتى تفحصت كل شئ بها، وهى واقفه أمام الكمسرى إلى جانب والدتها. فترآى لى أناقة ملبسها وحقيبتها وحذاءها فأنا من عشاق التفاصيل. ولم يخلو ذلك من إسترواق النظر إلى والدتها لتبيان النشأه. فإقتنعت بها كإقتناعى بوجودى. وقررت التحدث إلى والدتها، وغادر بعض الراكبين أماكنهم، فإتجهت فى صحبه والدتها ليجلسا على المقعد المزدوج الذى خلا. وعيناى لم تفارقها. ونما بداخلى رغبه هائله للتحدث إليها. ولمعت بذهنى أن الحياه مغامره مجنونة. فطغت علىً الجمله فقررت وضعها قيد التنفيذ. وتركت التفكير لأول مرة فى العالم من حولى وكذلك عاقبة الإقبال. وهممت بالتحرك فاعاقنى الموظف جانبى وقد إستسلم لنوم عميق، وإرتكزت رأسه على كتفى، وعلا شخيره كإنذار بألا أوقظة. فأنصعت للأمر، وآثرت التفكير وقررت أن أتخذ الموقف كمبرر لأن أفكر وأخطط للخطوات اللازمة للحديث معها خوفاً من فقدانها. فربما إعجابى الزائد بها هو مادفعنى لأن أكون أكثر حرصاً عند الحديث معها. وربما خوفى من نظرات الناس هو مادفعنى للتريث، وأحسست وكأننى كنت مدفوعاً إليها غصباً من كم المبررات التى أختلقها ، حتى إنتابنى إحساس غريب لنسيانها.

بدافع أن الفتايات كثيرات. فرميت صاحبه العباءه السوداء بنظره مختلسه. فترآى لى الشاب البالغ حديثاً قد أسقط التذكره من يده عن عمد ثم هوى أسفل مقعد صاحبه العباءه السوداء، فإهتزت فى حركه مفاجئه ثم صعد بسرعه من أسفل المقعد بعد أن أحضر التذكرة دون أن ينظر حوله وكأنة لم يعتنى بالناس الواقفة ، فإستند بجبهته إلى ظهر مقعدها، فزادتنى حركته ريبة فلم أستطع- من مكانى- أن أرى أكثر من ذلك. وإسترخت رأس الموظف لخلود أبدى ولا أمل فى بعثها. وترآى لى الرجل الخمسينى على الطرف الأخر من الكنبة تملأ وجهه إبتسامة لم تغادرة من أول الرحله وكأنها إرتسمت وجهه وليست كتعبير يطرأ. ونظرت إلى الفتاه العشرينيه بسرعة فائقة بإحساس لا إرادى نما إلىً بفقدانها. واستجمعت قواى لأحادثها أخيراً. فتبين لى رجل ستينى يجلس على المقعد المقابل لمقعدها، يعتنى بنفسة وكأنه شاب فى العشرين، يصبغ شعره باللون الأسود الفاحم، يرتدى قميص أبيض كتان، يفتح ذره الأخير، يرتدى بنطالون أبيض وحذاء من نفس اللون وكانة ملاك نزل لتوه من السماء ليخنق أهل العشق أمثالى. يلتفت بكامل جسده نحو الفتاه وأمها معطياً ظهره لشرفه مقعده. وبدأ يراشقها بنبال نظراته المتتابعه. فتضايقت، ورمته والدتها بنظره مستشيطه غاضبه فتلاشاها بالنظر إلى الفتاه.

وتحرك الأوتوبيس ببطء وسط الإزدحام فى محاوله جادة لأن يخلق لنفسه متنفساً يسير فيه، فيبتلع شيئاً من الطريق. ولم يخلو أحد المقاعد. ولازلت فى مكانى أتابع الشاب البلغ حديثاً وهو على عمله مستمر. فقد أثار ريبتى مما دفعنى لمتابعه حركة يده القريبة من الشرفة جانبه، حينها رآيت صاحبه العباءه تتأفف وتبتعد قليلاً عن مسند مقعدها، وتراجع الشاب برأسه بثبات، ونظر إلى الشرفه وكأن شئ لايحدث. وعلا أصوات مجموعه من الشباب والفتايات خارج الأوتوبيس، يسيرون على الرصيف جانبه ثم توقفوا ليتحدثوا إلى أحد زملاؤهم وهم يضحكون:-

- سوف نوقع عليك عقاب نهايه اللعبه.

- ألا تسامحون

- كلا.. فأنت من إقترح لعب الشايب.

- إذن.. إتفقوا على حكم واحد وسوف أنقذه دون إعتراض أو تفكير.

فإجتمعوا على إقتراح واحد عرضته إحداى زميلاتهم:-

-أصعد الأوتوبيس وصافح الجالسين فرداً فرداً.

كستنى علامات الإنبهار وأنا أتابعهم . ونظرت إلى الشاب الذى أبدى حماسه لتنفيذ الحكم، وأحسست كأنه تحدى لنفسى أكثر منه. ونظرت إلى العالم من حولنا. فقضى الشاب على تفكيرى بالفعل. وصعد درجات السلم، وصافح الرجل الخمسينى المبتسم وسط ضحكات زملائه الواقفين خارج الأوتوبيس الذى تصلب كالأسمنت. ولم يصافح الموظف جانبى الذى أستغشاه النوم. وصافحنى، فبادلته المصافحه بإعجاب على جرأته. وتابعت نظرات الراكبين، فرأيت الإستحسان والضحك من بعضهم، والضيق والتقزز من البعض الأخر الذى تأسف على ما أل له حال الشباب. أستمر فى مصافحه كل من يقابله فى الأوتوبيس. حتى إقترب من الفتاه وأمها فصافحته أمها مبتسمه مما دفعنى لأن أقوم وأخوض مغامرة التعرف على الفتاه. ولكننى رأيت الرجل الملاك قد غادر مقعده ووقف إلى جانب الفتاه وأمها ثم بدأ يميل برأسه ناحيه الفتاه وهو يغنى:-

-قولو له بحبه.

فتماسكت الفتاه فى محاوله جادة لأن تكتم ضحكتها وسط حاله من الإستغراب غلفها كما غلف الجميع لما طرأ على الناس من الجنون. لازالت علامات الذهول تنتابنى. ونظرت الأم إليه بضيق

مصطنع وكأنها تكتم ضحكه لم تستطع لجمها كثيراً من المفاجئة. فإنفجرت ضاحكه وتابعتها الفتاه العشرينيه وإبتسم الجالسين بينما ظل الرجل الملاك جاداً فى غناؤه وهو يميل ناحيه الفتاه مكملاً:-

-ومدوبنى حبه...

فتطوع أحد الجالسين للحديث إليه فى جديه:-

-عيب على سنك يا أستاذ

لكنه لم يعبأ بمن يتحدث، وبدأ يكمل مايفعله تجاه الفتاه مردفاً وهو يلحن الكلمات ويمطها:-

-فى بحوووووره الغريقة أبو عيون جريئه هـ هـ هـ هـ هـ أبو عيون جريئه.

وتناقلت مجموعه من الكلمات بين الركاب، ممزوجه بين الحسره والإستغراب والضحك على ما إنتاب الخلق. وتلاشت بداخلى الغيره من الرجل الملاك، وحل محلها الإنتشاء لما يفعله. لم يزل الشاب المصافح مكملاً عمله فى جديه بينما أصحابه من خارج الأوتوبيس يهتفون ضاحكين:-

–يامجنون..يامجنون..يامجنون.

فنظر بعضنا بإتجاه الهاتفين على الرصيف. فترآى لنا أن صاحبهم المصافح هو المقصود بالهتاف. وصار الأوتوبيس بخطوات أسرع قليلاً فى محاوله الهرب من الإزدحام. فتلاشى الهاتفين إلى ذكرى. وإندفع الشاب المصافح نحو الباب، ليقفز بحركه بهلوانيه أثناء سير الأوتوبيس ليلحق بأصحابه. فصفق له الرجل الخمسينى المبتسم الجالس جانب الباب الخلفى، وكأنه أنهى عرض مسرحى أعجبه. وأثبت لنا الزمن قدرته الفائقه على صنع المفاجأت.فقامت صاحبه العباءه السوداء من مقعدها، وأمسكت الشاب البالغ حديثاً وقد كان مائلاً أسفل مقعدها. وبدأت تكيل له أفظع الكلمات ممزوجه بكف خماسى طبع على جبهته. وأخرجت من عباءتها صنائع بيتها. وأشاعت فى الخلق المستفهمين أنه لامس جسدها. فصمتت، وأصرت على الإستحمال، ولكن حين تضاعف التطاول، وبلغ ملا تطيق. توقفت عن الحديث. وأهمت بلكم الشاب مره أخرى بكف تلاشاه بخفة. وقررت بغيظ أن تحرر محضراً. ولم يستطع الشاب الذائب فى السكرة أن يبد إعتراض. فآثر التأسف. ولم ينبس أحد بكلمه.وصرخت فى السائق الذى توقف بطريقة مفاجئة، أمسى معها الموظف النائم على كتفى طريح أرض الأوتوبيس. وسرعان

مايهل القلق والصمت والتعاطف من البعض تجاه الموظف بينما تنتاب الرجل الخمسينى المبتسم ضحكات هيستيريه دون أن يهتز شعره من التآثر لحال الموظف الذى بدأ يكابد ألمً عضوياً وضيقاً معنوياً لضياع مركزه كموظف حكومى . وحاول بعض الراكبين الذين إنشغلوا لحاله بمؤازرته. ولكن تغلبهم الضحك حين رأوا الرجل الخمسينى المبتسم مستغرقاً فى ضحكه.مما دفع الموظف نفسه للإبتسام. وفى خضم الحدث أفلت الشاب البالغ حديثاً من قبضه صاحبه العباءه السوداء ثم قفز من الشرفه. وإبتعد عن الأوتوبيس يحدق به نظرات الراكبين ولعنات صاحبه العباءه. ورآيته من وراء الزجاج فى خلفيه الأوتوبيس راضياً عن نفسه، راقصاً ولم يخفى رغبه تقتله فإندفع كالمجنون دون تفكير فى العواقب. وإستغربت لجرأته، وإقدامه على مطاوعه رغبه تملكته- ولوبالخطأ- فأخرجها ولم يكتمها فتؤرقه. فهنيئاً لمن عاش رهن التجربه. وجلست مكانها بدلع وشموخ كالمنتصر. فقد إستطاعت فى جرأه أن تفعل وأن تزود عن حقها دون خوف من تبعات البوح والتهليل. وكبت الناظرين أمثالى رغباتهم تجاهها، واكتفو بالنظرات المختلسه. وعلا شخير الموظف جانبى فقد إستسلم لنوم عميق مره أخرى دون خوف من تبعاته، وأستتر بمقعد

يقيه السقوط. توقف الأوتوبيس ورأيت الفتاه العشرينيه تغادر مع أمها، بينما الرجل الملاك يتبعها مترنماً:-

-بعيد عنك حياتى عذاب.

صمتُ وتابعت مايحدث وكأننى فى روايه هزليه مليئه بالإندفاع والجنون. فضحكت وحزنت وأنا بمكانى . وقررت ولم أفعل .فبقيت على الهامش دون قرار. وإستغرقنى التفكير مع إنفراج الطريق، وصمت الأوتوبيس الذى خلا من أبطاله واحد تلو الأخر. وتخطيت محطتى، ووصلت "الموقف" ولم ينزعنى من عمق تفكيرى سوى صوت المانتور الساخن أسفل الكنبه بأخر الأوتوبيس.

"تمت"

"التاهة"

دخل الفصل فى هدوء دون أن ينظر إلى أحد . هاله عدد التلاميذ البائسين المتكدسين على المقاعد البالية. وفى حالة من الإنسجام تلاقت نظراتهم البريئة لتطغى على البؤس الطافح فى ملابسهم المهترئة، وراحوا يتبادلون كلمات التعارف. فاليوم هو الأول فى السنة الدراسية. تحرك وسط المقاعد المرصوفة متأملاً المكان، يجول ببصره فيما حولة ملتمساً لنفسه مقعداً خالياً. وفى حركة وئيدة أتجة نحو مقعد حديدى بدون مسند خشبى، يضع حقيبتة جانبة، ويستند بظهره إلى الحائط. يلاحظ بعض النظرات التى تمرق نحوه خلسة من بعض التلاميذ الذين لم ينخرطوا فى "الرغى" اليومى لا لأنهم لايهوون ذلك ولكن لأن الوقت لم يجُود عليهم بمؤانسة الأصدقاء. حالة من الضجيج والحركة الدائمة فى أرجاء الفصل. فهناك من ينظف السبورة بعد أن أصابها غيرة بالكتابة، وهناك من يختبر عضلاتة فى التنكيل بزملائة. وهناك من يغازل فتاة من شرفة الفصل المطلة على إحدى العمائر السكنية. فالكل بما يهوي يفعل. يتابع كل ذلك فى صمت ولم يطل الصمت.

فأخرج من حقيبتة لعبة تسمى"المتاهة" داخل إطار من البلاستيك وخلف شاشة من الزجاج تقف عربة فى أول الطريق وطرق كثيرة متداخلة يجب إختراقها وصولاً إلى جراج فى آخر الطريق. يضغط على ذر التشغيل، تتحرك السيارة فى محاولة لحل لغز المتاهة. لحظات، وإلتف حوله التلاميذ واحداً تلو الأخر فى شكل يستحيل معة رؤية صاحب اللعبة. ومُنى كل واحد نفسه بأن يجُود عليه بفرصة للعب.

مر الوقت.. وإنقضت بعض الحصص اليومية، وتحول صاحب اللعبة لمركز جاذبية تلاميذ الفصل، وأمسى مقعده محل عراك من حوله. وأشتدت المنافسة بينهم فى محاولة للوصول إلى آخر المتاهة وحل لغزه. وأعلن هو فى شئ من التحفيز والإبهار:-

- لماذا يكون أقصى طموحكم محاولة للعب إذا كان بالإمكان أن يمتلك كل واحد منكم لعبة.

أصاب حديثه الجميع بالدهشة. فمنهم من لم يقتنع ونعتوه بالجنون. واطلقوا عليه صاحب البوق الفارغ. ومنهم من أمن على حديثة ففى لغزه ولعبته وأسلوبه مايجعلة قادراً على الإبهار وصنع الجديد. ولم يطل عليهم حالة اللغط والهمس الجانبى. فأخرج من

حافظة جلديه أنيقة جذبت أبصارهم ورقة من فئة المائة جنيه، ظهر بريقها فى عيونهم.ثم تحدث فى نفس لهجته الناعمة:-

- وهذه أول مساعدة نحو شراء لعبة لكل فرد.

ثم وضعها داخل صندوق خشبى محكم الغلق فيماعدا فتحة شقت فى أعلاه. وإندفعت على أثار حديثه الحمية فى صدورهم، وتصارعوا نحو إخراج ما فى جيوبهم ليضعوه داخل الصندوق الخشبى بعد أن غشت الورقة النقدية على عقولهم. وأحتدم العراك ولم يبرح التلاميذ مكانهم حوله إلا تحت ضغط حضور المدرسين.

مر الوقت وتحول الطالب إلى مطلوب وأمل يتطلب السعى. وأمسى كعصا سحرية قادرة على التحكم فى مصائرهم.فقد اصطحب عقولهم وأموالهم داخل متاهتة وزاد من تعلقهم بها. ودخلت سيدة عجوز الفصل متلفعة بملابس مهلهلة تبيع كراتين من الحلوى والسندوتشات التى تفوح رائحتها فتذهب رائحة كل واقع ويبقى أثرها فى النفس،ومقبلات بأسعار فوق إحتمال التلاميذ. فإبتاع كل ماتملك. فلمعت الدهشة فى حدقاتهم. وقرر أن يغدق عليهم ما إبتاعه. فإنغمسوا أكثر فأكثر داخل لعبتة وتسائل بعض الناقمين عن منبع عطاياه، وحاولوا لفت أنظارهم إلى أموالهم

بداخل الصندوق فلم يجدوا سوى النهر والسباب. فتقرب إلية من تقرب فأخدق علية مايستحق بقدر ماكيل له من بديع الكلام والأفعال. وحبس عطاياه عن من كان سبباً فى حنقه. وأتخذ أكثرهم راحة لنفسة وطاعةً لأمرة سكرتيرا له ينظم لة عطاياه اليومية من الحلوى والمال على قدر أسلوبهم فى التعامل معه. فأشتدت المنافسة فى التودد إلية بتلفيق التهم للاخرين. وزادت الضغائن والمكائد بينهم إعتقاداً بأن فى ذلك خير سُبل التقرب. فإختلط اللعب بالواقع وتبدلت النفوس داخل المتاهة.

مر الوقت والأيام.. وهم على حالهم فلايشغل بالهم سوى لعبته ومتاهته التى طرأت عليهم، وإزداد أملهم فى أن يحقق الصندوق الخشبى أملهم فى إمتلاك لعبه أو فرصة للعب بلعبته. وشاطرهم أستاذ قد نزع اللعبة من بين أيديهم فى شئ من التوبيخ، وحين فرغ من إلقاء الدرس، قرر أن يمارس قدرتة الذهنية على حل لغز المتاهة. فأعجبتة، وأثنى على الطالب ولعبته. فأثابه الطالب بأكثر مما ثنى. وأعطى الضوء الاخضر إلى سكرتيره وتحول الفصل بفرمان من صاحب المتاهة لقاعة عامة تُعرض فيها كافة أنواع الحلوى الغربية والشرقية، وتحول التلاميذ بذات الفرمان إلى فرقة موسيقية تعزف أحلى الالحان إحتفالاً بيوم ميلاد أستاذهم الذى دخل لعبة المتاهة. وحضر بعض زملاء التدريس إحتفالة. فعرض

عليهم لعبه الطالب. فإنغمسوا فى حل لغزها وإشتدت المعركة بينهم، وحاول كل واحد منهم إغتنام الفرصة للعب. وإنقسموا على أنفسهم وأختلفت أرائهم كما أختلفت أراء التلاميذ، وكادوا المكائد وسعى كل واحد سعيه تقرباً لصاحب المتاهة. وكثر الكارهين له لإفتتانهم به. وحاولوا إثارة زملائة ولكن دون جدوى. وإنحسرت أصواتهم فى صحراء واسعه حتى تلاشت تحت الرمال. وظل الحال كما هو عليه حتى تناسى الجميع اللعبه بعد أن اصبحوا جزءاً من متاهتها.

مر الوقت والايام والشهور وربما بعض السنين.. ولم يزل الكل على حاله ولم تنته "الفترة الدراسية". وتجرأ أحدهم بسؤال عابر ولكنه أحدث صدى داخل مجموعة من الزملاء يمكث إليهم. وقرروا على إثر سؤالة أن يسألوا صاحب المتاهة عن أموالهم داخل الصندوق الخشبى فأنتظروا مجيئه ولكنه لم يأت. فأنتظروا الغد ولكنه لم يأت. فبحثوا عن الصندوق ولم يجدوه. وسادت حالة من الهمس والتفكير.فقد مرت الأيام والشهور ولم يعثر له على أثر.وإتحد الجميع تحت هدف واحد،وتم الإتفاق على أن يدلى كل واحد بمعلومة عنه فى دفتر حتى يتوصلوا إلى مكان يقطنه. فتعددت المعلومات والطرق والبيوت وزاد الأمر تعقيداً. فإختصروا المعلومات أمامهم،وإنحسرت فى بعض الطرق والأماكن التى نالت

أكثر الأصوات فى إستفتاء الإدلاء بالمعلومات. فقسموا أنفسهم فرق، وتحركت كل فرقه فى طريق مختلف كان يسلكة، وحامت أخرى بمنزل إعتقدوا أنه يقطنه. فطرقوا الأبواب والنوافذ وسألوا أصحاب الحوانيت ولكن دون جدوى. وإنكب فريق أخر على الدفاتر المدرسية المليئة بعناوين التلاميذ وأسمائهم علهم يجدون أي شئ يعينهم على إقتفاء أثرة. ولكن لاجديد. حتى ذلك المقعد الحديدى بدون المسند الخشبى الذى كان محل جلوسه ومنبع متاهته لم يكن موجوداً. ساورهم الشك وأصابتهم الريبة تجاه صاحب المتاهة. فتحسسوا أنفسهم فأدركوا أنهم يطأون أرض الواقع بساق تملؤها الدماء. فتملكتهم الحيرة لبعض الوقت ووقف العقل عن التفكير ولم يعلم أحد طول المدة..

مرت الأيام والشهور والسنين.. وغمر بحر النسيان كل شئ، وعادوا إلى سابق عهدهم. فهناك من ينظف السبورة بعد أن أصابها غيره بالكتابة. وهناك من يختبر عضلاته فى التنكيل بزملائه، وهناك من يغازل فتاه من شرفة إحداى العمائر السكنية وهناك من يبحث عن متاهة جديدة..

"تمت"

"حسن الختام"

"ماذا أفعل بعد الستين؟.

بالأمس كان السؤال يتردد على اللسان فى إستحياء، وسط إستهزاء الزملاء. فقد كنت ألتمس العزاء بطول السنين التى تفصلنى عن الستين. ولكن اليوم مضت السنون بسرعة كالبرق. وتصلب السؤال من جديد نصب عيناى كأمر واقع لا مهرب منه"

كل ذلك دار برأسه وهو جالس على فراشه، يتأمل منبة أبيض تدق عقاربه بالروح. فيتابع خطواته، سابحاً فى رحلة الزمن الذى أستغرقه. فتذكر أيام العمل بمسراتها وملذاتها وإنقضاؤها فجأة. وأحس- حين أحيل على المعاش - بإنقطاعة عن ركب الحياة. وتنامى لديه شعور عميق بعدم الرغبة فيه. فإستعد للموت بالمداومة على الصلاة وإتقانها، والمبالغة فى التدين. وإنعزل عن العالم فيما عدا الجلوس مع أسرته. ورفض دعوات زملاءه للمكوث على المقهى. وما أن طال العمر ولم يأت الموت الذى لايفر منه. وبدأت تكل صحته التى حافظ عليها حتى بعد المعاش. سئم

الحياة الراكدة . وقرر أن ينفض عن جسده غبار الملل، وأن ينفس عن نفسه بما تبقى له من أيام فى الحياة.

تلاقى على المقهى بصديقه المحال– مثله – على المعاش. وإنسجم معه فى لعب "الدومينو" كسابق عهدهم، وأحتسى الشاى بالحليب الذى كان مشروبه الرسمى فى أيام العمل، كما أحتسى صديقه الشيشه "القص" مع قدح الشاى السادة. ودارت بينهم عجلة الأحاديث، وأختلطت أورق الماضى بالحاضر بالخوف من المستقبل، والذكريات المنسية بما إستجد من متغيرات. وتساءل الصديق:–

–ماذا تفعل فى الحياة بعد المعاش؟.

–لا شئ . ولكننى أشعر بالتخبط والعشوائية.

–طبيعى جداً. بعد كل ذلك العمر بالوظيفة يتم الإستغناء عنا بحفنة من الأموال، لنبدأ حياة جديدة.

–لذا ربح من عاش من البداية أسير تجارته وأفكاره.

–وما رآيك أن ننشأ مشروع؟.

–أعتقد أن موظفي الحكومة ليس لديهم القدرة على الإبتكار والمجازفه. فقد عشنا طوعاً لما يُملى علينا.

يغلق صديقه اللعب عليه، ويجبره على سحب ورق "الدومينو" من الخارج ثم يتحدث:–

–وما المانع فى أن نتجرأ ونحرر دماغنا ونشغل عقولنا ولو مرة

لايزال مستمراً فى سحب الأوراق ثم يعقب:–

–بعد كل ذلك العمر من الخمول. لا أعتقد. على الأقل فأنا أعرف نفسى من تلك الناحية.

يضع الصديق أخر ورقه ثم يغلق اللعبة، ويجبره على أخذ باقى الأوراق وهو يتحدث:–

–إذن فلتمت بمكانك.

ثم يتحدث إليه بلهجة ناصحة:–

–لابد أن تجدد حياتك إن كنت تريد أن تبدأ حياه بعد الستين.

فى أثناء عودته للمنزل، فكر جدياً فى تجديد حياته عملاً بنصيحة صديقه. وحسم الأمر بمشاركته فيما عرضه عليه من إنشاء مشروع، كما قرر أن يستثمر حياته الباقيه وألا يضيعها هباءاً. فصعد درجات السلم فى رشاقة أعادها لنفسه بعد شهور الوهن التى طوق بها حياته بعد المعاش. وما أن وصل إلى باب شقته بالدور الأخير. حتى ترآى له جارته الجديدة ذات الأربع عقود، والجسد المثير التى تمكث بالشقة المقابلة. تجلس أمام شقتها، ترتدى قميص أحمر، تضع على ساقيها طبق تقطف به ورق الملوخية. فزاغت عيناه. وإزدرد ريقه من المفاجأة، وتظاهرت بدلال أن ظهوره فاجئها. فإحتمت بشقتها المظلمة، وتركت الباب مواراباً. فتحاشى النظر إليها بالدخول إلى شقته. فوقف إثر الباب، وقد طبع المشهد بذاكرته كأسمه، ولم يتمالك نفسه إلا وهو ينظر من العين السحرية علـه يراها من جديد. ظل واقفاً، يتأمل، ويتخيل، فقطعت تخيلاته بخروجها خلسه لتأخذ أشياءها. نظرت نحو باب شقته لتشعر بالأمان ثم إحتمت بشقتها بسرعة، وإبتعد بخطوات بطيئه بقدم لاتكاد تحمله. وإنبطح على الكنبة – التى رصت جانب الباب – بجسد مثقل بالشهوة. وبدأ يفكر فيما رآى. وتبدلت هرمونات جسدة الساكنه إلى بركان ثائر لتعيد إليه ذكريات مرحلة سابقة من العمر. فما أن يتذكر المشهد كاملاً بتفاصيل

جسدها المسيل للعاب، حتى يتناسى المثل العليا التى طالما تغنى بها. ونشط العقل وكأنة حمم من الأفكار المتلاحقة. وبدأ السؤال يلاحق الاخر. لم تجلس هكذا؟!. وما السر وراء مكوثها وحدها؟!. بسرعه يتهمها بالعهر وإنها تمتلئ برغبه هائلة – مثله – نحو الجنس. فأحس بأن شئ ما يجمعهم، وعن قريب ستطور العلاقة. فإنتشى. وتراجع عن إتهامه لها حين نظر إلى الموضوع بنظرة عاقلة، فوجد نفسه متعاطفاً معها وزاد تعاطفه لها حين رأى أنها تقطن بشقه تحاوطها الابراج العاليه بلا منفذ إلا ذلك المنور الذى يربط بين شقته وشقتها ليس منفذ إلا للروائح الكريهه النابعة من الحمام المختلطة بروائح الطعام المنبثقه من المطبخ، تلك ثمة البيوت العشوائية. كل ذلك يدور بعقله وهو يقلب قنوات التلفاز بلا تركيز ثم تستقر عيناه على إحدى الراقصات التى تتوسط الشاشة. فيتابعها بتركيز حتى تستولى عليه تفاصيل جسدها. فيمسى متنقلاً بين قنوات الأفلام الحديثة والرقص الشعبى. وتنخرط عيناه فى المتابعة والمقارنه والإعجاب بين الأجساد والملامح المختلفة، ومقارنتها بزوجه العجوز، التى بدأت تتهأوه من ألام المفاصل. فأغلق التلفاز، وإستسلم للنوم الذى غلبه من كثرة التفكير.

منذ أن خرج من عزلته وهو لا يقابل سوى ذلك الصديق، ولا يرتاح فى الحديث سوى فى صحبته. فيقفا على كوبرى الجامعة،

يقزقز هو اللب الذى يحبه بينما يتناول صديقه الترمس، وتدور بينهما أحاديث مختلفة مثل كل يوم، وتنمو موضوعات كثيرة من بينها مشروعات تجارية لم تدخل حيز التنفيذ. ورحلات وزيارات لم تتم. وأفكار إجتماعية ونظريات فلسفيه إكتسبوها من الحياة فلم يكن أحدهم يقرأ كتاب. فيلتفت يمينه ويساره كمراهق متابعاً الفتايات السائرات ذوات الملامح المختلفة والأجساد المتنوعة والروائح المثيرة. فيتفحصهم بتأمل فيلاحظ الصديق، ويتحدث بدعابة:-

-أراك إتبعت رأيي بتجديد حياتك، ولكن هذا ما لم أقصده.

فتجاهل حديثه بحديث أخر:-

-الواحدة منهن لديها القدرة على أن تجعلك تشتهيها وكأنها أجمل ما فى ذلك العالم. ولكل واحدة منهن سبلها الكفيله بالإيقاع بك فريسه.

-ياصديقى كلهم واحد فى الفراش.

قالها بحسم، فلم يقتنع بإجابته التى لم تثلج صدره. فأثر الحديث فى موضوعات أخرى ، والبحث مع صديقه عن مشروع ذو جدوى

شحيح الخسائر. فبعد المداومة والبحث لم يصلوا لجديد ككل يوم يلتقوا فيه. فآثرو الصمت. وإنكب هو على نفسه وعلى مايعتمل به. فأكمل قزقزة اللب ، ومن جديد راح يتأمل بتأن السائرات أثناء سيرة فى الطريق.

تمدد على الكنبة، يشاهد قنوات الرقص الشعبى خلسه حتى لا تراه زوجه التى تهيأ العشاء بالمطبخ. فأستولت عليه القنوات بعد أن كان يشاهد المحطات الدينيه فقط. وتعمقت عيناه فى التفحص وتشتت أفكارة بين الحقيقة والتخيل، وتمثلت الجارة مكان الراقصه التى تملأ الشاشة.فإشتهاها، وسرعان ما ينتصب خلف باب الشقة ناظراً من العين السحرية ربما يرى مشهد بالكربون كالأمس. ولكن بلاجدوى. فتنمو بداخله رغبة فى طرق بابها والحديث إليها، فيحس بالرهبة لمجرد التفكير فى ذلك الأمر. يحاول البحث عن سبيل أخر، فتلمع بعقله فكرة شيطانيه، يقررعلى إثرها التوجه نحو نافذة الحمام التى تطل على المنور الذى يحوى نافذة حمامها. وتتملكه الفرحه حين يرى الحمام مضاء ولكن النافذة مغلقة. لايهم سوف يعزى نفسه بالخيال، ويترك لعقله تخيل تفاصيل مشهد كامل من وحيه. يرقد إثر النافذة، ينتظر بزوغها محتملاً الرائحة الكريهة من أجل متعة النظر. فى صمت، تدور الأفكار بداخله كتروس عجلات متلاحقة السير بسرعة ليعزى نفسه بطول

الإنتظار. لاتزال الإضاءة مشتعله كالجمرة بداخله، فتسبح عيناه تلقائياً للنوافذ بالأدوار التى تسبقها، وتتفتح أمام عيناه أبواب أخرى، ويدرك أن للتلصص متعه لايعرفها إلا من كانت تحاوطه النقائص. تمر فتاة فى العقد الثانى عبر شرفه أسفل شرفة جارته المقابله له، ترتدى بيجامة صيفية "كت" و"هوت شورت" ثم تعود نحو النافذة لتغلقها. يتضايق، يستمر فى متابعة الشرفات الأخرى خلسه محاولاً ألا يراه أحد. فيعاود النظر إلى شرفة الجارة ذات الرداء الأحمر فلا يراها. فيطول الإنتظار، وتخمد الجمرة. وترجح رزانه العقل فتركل الشهوة والإندفاع لتحل محلها. ويزداد تأنيب الضمير، ويستسلم لفيض من الأسئله. ولم يجد إجابة شافية سوى أنه لعن المعاش والفراغ وعدم الإستقرار على مشروع يرضيهما. تغلق نور نافذتها. وتطرق زوجه باب الحمام، هاتفه:-

-العشاء جاهز على الترابيزة.

حول ترابيزة السفرة، وأمام التلفاز الذى يوضع على البوفيه. جلسوا يتناولوا الطعام، ويتابعوا التلفاز بصمت. وزاغت عيناه فتفحص جسد زوجه التى تمكث جانبه وقد غلفها العجز والوهن. وبدأ فى إجراء مقارنه جادة بين زوجه وجارته الأربعينيه. وتغلف الحوار الداخلى بطعم الإستغراب. حين تذكر عندما لم تطل جارته من

نافذتها، زاغ بصرة ليترصد غيرها عبر الشرفات.فتأكد له خطأ قول صديقه. وأدرك أن لكل واحدة منهن شيئاً تتميز به عن الأخرى. وإنقض التساؤل يلتهمه وهو يمضغ الطعام بلا شهية. مالذى يدفعة للإستمرار مع تلك الزوجه العجوز؟. أخرجه من شطحة صوت التلفاز الذى علا فجأة، تلاحظ له أن عيناه مثبته على صور الأبناء والأحفاد المرصوفه جانب بعضها البعض على البوفيه الذى يوضع عليه التلفاز. فإبتسم إبتسامة أزالت عنه غبار عناء التفكير، تساءل:-

-كيف حال الأولاد ؟..ألم يتصلو اليوم؟.

-بخير. أتصلوا ولم يجدوك.فتركوا لك السلام.

قالتها ونظرت إلى التلفاز وهى تتناول الطعام. وتحركت عيناه بحركة سينمائيه "بان" لتستعرض صور مختلفة للأبناء وللأحفاد عبر سنين مختلفة بملابس مختلفة. وإستقرت عيناه على ميكنة الحياكة المغطاة - بسجادة صلاة - فى ركن بالصالة. ولاذ بذكريات حيه، طفت من ماضى جميل ، وأحس بأنه غادر مقعده، وأزاح الغطاء عن الميكنة وكأنه يزيل الستار عن ركام عمر مضى منذ مايقرب من ٣٦ عاماً.

حين كان يتسكع كعادته بشارع سليمان باشا بأيام شبابه ، رأى فتاة فى نضارة الشباب، يومها جذبه فستانها بألوانه الزاهيه وكذلك قصه شعرها "الشينون" فأستولت عليه. فتبعها حين دخلت إحدى العمائر. وتملكته رغبه فى التعرف عليها. فخطا إثرها حتى دخلت شقه كتب – على لافتة – أعلاها" مكتب مسيو جو لتعلم التفصيل". ووطأت قدماه المكان بحماسه مفاداها القلب. وبحثت عيناه عنها بدافع الإعجاب. ففحص الوجوة حتى أصابها بنظرته وهى تجلس فى ركن بعيد ناظرة إلى الأرض بصمت، وضعت حقيبتها على ساقيها المضمومتين فى حياء وخجل. فحدجها بنظرة عاريه الحياء. فإستغربته وتلاشت فى حياء نظرته. وخرج فوج من الفتايات والسيدات وبعض الشباب من غرفه جانبية تطل على الصاله الواسعه، وفى إثرهم خرج رجل فى العقد الخامس ثم وجه حديثه إلى الجالسين ومنهم تلك الفتاة التى تبعها:-

-أحضرتم الباترون؟.

لم يفهم مقصده، فهو ليس خبير بالتفصيل. ولكن الفتاه أشارت له وحدها ثم تحدثت بصوت – به بحه– جميل وكأنه نغمه طربته أو هكذا تخيلها ربما لأنها أعجبته:–

–لم أستطع أن أحضره اليوم.

–الحصة القادمة لابد أن يكون معكٍ.. لأننا اليوم سوف نعرف كيف يتم قص الكم منه .

يشير لهم بالاتباع ثم يتجه مدرس التفصيل إلى الغرفة، يتبعه الجالسين بما فيهم هى، ويتبعها هو بنظراته حتى تتواري عن وخزها خلف باب الغرفة. ويخل المكان إلا منه، فتضطر السكرتيره لسؤاله:–

–تؤمر بشئ يا أستاذ؟.

لم يجيبها، ونظر إلى الغرفة المغلقة وكأنه يفكر فى شئ ما، فأومأ تأكيداً على ما لمع بذهنه. ثم غادر فى صمت.

وطـأ أرض الواقـع فتـرأى لـه نفسـه، يـداعب ميكنـه الحياكـه التـى توضـع علـى الترابيـزة، وسـط نظـرات الزوجـه المحدقـة بـه فـى إستغراب، ويُخرج من بين فتحة الترابيزة الخاصة بالميكنة مجموعة من مجلات التفصيل، وينتشل من بينهم باترون قديم ثم يعود إلى مقعده حول مائدة الطعام، يتحدث إلى زوجه المريضة وعلى وجهه ترتسم إبتسامة صادقة:-

- تذكرى هذا؟.

تبتسم ثم تتحدث:-

- إشتريته لى حين كنت تتابعنى بدروس التفصيل.

يهم بإفراجه عن أخره، فتعوقه مردفه :-

- حاول أن تفتحه ببطء..

وتكمـل مـع ضـحكه خفيفـة تـذكره - بروحهـا الضـحوكه - بأيـام مضت:-

- فهو ملصم مثلى، فقد أتى عليه الزمن.

يفرجه – كما طلبت – برويه. وتنتشى هى لرؤيته وكأنها تفتح صندوق من الذكريات السعيده كانت جزءاً لايتجزأ منها. ويترآى لها سنين عمرها وحياتها مع خطوط الباترون الكثيرة المتداخله بألوانها المختلفة. فتحكى كشاهد على عصر مضى. كيف تعلمت قص الكم والوسط، والردف من الباترون؟، وفى سرعه تفتح إحدى مجلات التفصيل القديمه– التى كان يتربع بداخها الباترون– وكأنها تذكرت شئ مهم. وأشارت إلى بيجامة رجالى ثم تحدثت إليه:–

–تتذكر تلك البيجامة؟.

–هى ماصنعتيها لى لأرتديها بأول أيام الزواج، لم أزل محتفظ بها.

فيغادر مجلسه مدفوعاً بنشوة الذكريات، ويتجه إلى غرفة النوم. ولم تزل تقلب فى صور المجلة. فيترآى لها صور فساتين – لفتايات وأطفال وأنسات وحوامل– مطبوعه بصفحات المجله يتشابهن حد التماس مع مايرتديه الأبناء والأحفاد فى الصور الموضوعة على البوفيه. يعود مبتسماً وهو يحمل بيجامة مقطعة

عند الصدر ثم يبسطها على الترابيزة، فتنظر إليه ضاحكه ثم يتحدث:-

- أنظرى مافعلتِ. أحتفظت بها لتكون شاهداً عليك.

- قلبك أسود لاتنسى (قالتها بدلال وإبتسامه تكسو وجهها)

- كنتِ عصبية وغيورة، ولن أنسى شكلك حين رأيتى صورة خطيبتى الأولى بين الكتب.

- لا تُذكرنى حتى لا أتضايق

يقترب ناحيتها ثم يتحدث بغزل عفيف:-

- ألازلت تحبينى، حتى وأنا عجوز؟.

فتبتسم بحياء:-

- العمر والعشرة خير شاهد.

فتحدث فى جديه موظف وقور:-

- الحق إنكِ تحملتى مشقة صنع ملابس الأبناء فى كل المناسبات، وأزحتِ عن كاهلى بند كاد يقسم المرتب.

- يومها لم أشعر بالتعب. لأنك كنت تعيننى بالكلمه الطيبه والمذاكرة للأولاد. غير أن حب التفصيل أعطانى دفعة إتمام ماكنت أصنعه.
- لن أنسى لكٍ جميل ماصنعتٍ.
- هذا مايهون علىً تعب المفاصل، جراء طول المكوث على الميكنه فى برد الليل.
- حمداً لله على وصول السفينة بأمان.

تهم بلملمة أوراقها ومجلاتها كما تحاول أن تلملم نفسها الواهنه، ويحمل هو أطباق الطعام متجهاً نحو المطبخ، بينما تعكزت على عصاها عائدة لغرفتها. فتأبطها وإتجة نحو الفراش. فإستغرقها النوم. بينما لم يزل هو مفكرا، محملق النظر، يرنوً إلى المنبه الأبيض على "الكومدينة" جانبه، الذى تضج عقاربه بالروح والحيويه. ولم يخرجه من فيض تفكيره سوى أذان الفجرالذى غزا أذنه. فغادر مجلسه ليتوضأ. ولم يرمى نافذة الحمام بنظرة ولو عابرة. وبعد أن أتم وضوءه أحس بالصفاء التام. فإنتعل حذاءه، وفتح باب الشقه، وصار نحو المسجد آثراً حسن الختام.

"تمت"

"الذى أضحك وأبكى"

إستطاع صوت دميته المضحك أن يجذب الطفل بداخلى. فأبدلت طريق العودة إلى المنزل بالذهاب ناحيته. يدفعنى صوت الإبن كاناقوس يذكرنى بسؤاله :-

- أين اللعبة التى وعدتنى بشرائها؟.

تصلبت أمامه، وترآى لى جسده النحيل متوارياً عن الأعين بجلباب رث، وتحاوط رأسه عمامة بيضاء متسخة. وترتع قدماة فى حذاء واسع لايناسبه، وتنبت شعيرات رماديه متفرقة بلحيتة، ويرص أمامة صندوق من " الكارتون" يقبع بين جوانبه العشرات من نفس الدميه التى يحركها العجوز بيديه الهزيلتين. وحين أحس فى عيناى رغبة مترددة فى الشراء. ضغط على وسطها .فأصدرت صوتها المضحك الذى كان كافياً لإنهاء أمر شرائها.وأخرج من الصندوق واحده لم تعمل بعد.وبدا يجربها ليبعث لى الطمآنينه بحسن سلامتها. وحين تأكد لى ذلك. أمحضته ثمنها بعد أن فاصلته. فإنصاع لأمرى. وإبتعدت مسروراً كطفل إمتلك

بغيته بالثمن الذى يريده. وأستمر هو فى رحلة جذب الأطفال أمثالى بصوت لعبتة المضحك.

حين وطأت أرض المنزل، إستقبلنى الإبن بالترحاب. ونضح وجهه بالسؤال المعتاد، فأجبته بإبرازها. فإنفجرت بملامحه ينابيع البهجة. وإنخلع قلبى فرحاً لما طرأ عليه. وتخليت عن مكانتى كرجل فى سن الرشد لأتلفع برداء الطفولة التى تقبع فى أعماقى فى إنتظار مايثيرها. وتربعت جانبه-على الأرض- محاولاً إضفاء حالة من الإثاره بإظهار صوت اللعبه المضحك. فضغطت كما كان يفعل البائع العجوز. فلم تصدر صوت يذكر. وتحسست كافة مواطن الدميه فلم ألتمس سبيل للنطق. ودق الحنق أبواب القلب، وفار الجسد بالضيق. وتسلل فى رحابهم حاله من الترقب طغت على الإبن. وتحول الهدوء لشئ من العنف بدا فى حركه يداى أثناء البحث عن طريقه تدفعها للمحاكاه بصوتها المضحك. فأزلت رداءها فى رحله التقصى علها تعمل بالحجاره. فلم أجد سوى جسد مصمت بلافراغ. ونما اليأس حولنا حتى أمسى كحقيقه دامغه. لمعت نصب عيناى رغبه عاجله للإنتقام زاد من وهجها عزوف الإبن عن اللعبه الصامته بلاروح. وراح يلهو بأخرى. وتركنى أكابد مراره الإستغفال فتثور نفسى حيناً ويضفى العقل بصمتهُ، فأزداد هدوءاً حيناً أخر حينما أتذكر بخاسه الثمن الذى

دفعته نظيرها. وبأعصاب تتصنع البرود قررت العوده إلى العجوز فى الغد، رغم التأكد بأننى لن أراه مرة أخرى. فقد تحقق ما أحسسته باليقين. لم يعد بمكانه كالأمس. فبحثت عنه بالأماكن المحيطه، وتفحصت وجوه البائعين القلائل المترامين على الرصيف، وأصغيت أذنى للاصوات المنتشرة بالمكان لعلى ألتقِ صوت لعبته المضحك. فلم أفلح . تسألت عنه بأحد الحوانيت المجاورة لمكان جلوسه. فلم أجد سوى رد أثلج صدرى:-

- صادرت البلدية بضاعته.

ملؤنى أحساس الشماته،فوجدت فيما حدث له خير عزاء لنفسى. وقررت عدم البكاء على اللبن المسكوب. وأقسمت الا أبتاع من بائعى الطرقات أبداً. وعدت أدراجى كما جئت. أحمل خيبه أمل، ومعيلاً على الأيام حمل النسيان. وكلما مررت بنفس المكان تهل ذكرى ماحدث فاضحك بسخريه حين أنظر للموقف بلا أبعاد،وأتضايق بوجع حين أفلسف الأمور فأغوص فيما أل له حال الناس حولنا، وحالة الغلاء التى دفعتهم للإحتيال على الأخرين. وأختلط ذات يوم بتلك الذكرى صوت اللعبه المضحك من جديد فغزا أذنى. وبدا الصوت جلياً كأصوات البشر المتكدسين حولى بنفس الميدان الذى كان يفترشه بائع الدمية ذي قبل. فصرت

متتبعاً مصدر الصوت. وكلما إنغمست وسط المتزاحمين أسمع الصوت أكثر فأكثر. ولم أتمالك نفسى حين رآيتة فى هيئه أقبح مما كان عليها، وبدا كبهلوان يداعب السائرين بنفس الصوت المضحك دون لعبة بيده. وحاولت أن أتأمل مصدر الصوت.فبدا منسجماً فى إستعطاف السائرين من الشباب والأطفال والسيدات والكبار فيقابلون فعله بالضحك والسخريه وأحياناً بالقليل من المال والطعام. وحين تعذر علىً تلمس مصدر الصوت. إنقضضت عليه،وقبضت على جلبابه، فإلتفت مرتاعاً، وحين رآنى أصدر صوته المضحك من فمه ليضفى حاله من المرح على الموقف المفاجئ، وإبتسم بطريقة مصطنعه، وبدا لى وجهه المصاب باليأس وجسده الذى أضناه القنوط وأسنانه الصفراء والمتكسرة بعضها ثم تحدث فى قله حيله ولهجه قادره على الإستعطاف:-

- أكل العيش يابيه.

إنفكت قبضه يدى الممسكه به تلقائياً، فقد مس حديثه أعماقى، وتركنى مغلف بمشاعر العطف والرآفه تجاهه وتلاشى الغضب بداخلى. وإبتعد مختبئاً وسط الكتل البشرية. وبدأ يصدر صوته المضحك من جديد كنذير ليجذب إنتباه السائرين نحوه فى محاوله أخيرة للعيش ولو على سبيل إختلاق الضحك. فى عالم لا يستحق

إلا الضحك سخريه. وتابعته بعين زائغه وقلب راضياً حين أدركت قدرتى على العفو عند المقدرة. ومضغه الأزدحام، وبقى صوته المضحك يرن فى الأرجاء وفى أذنى. فيضحكنى ويبكينى.

"تمت"

"أغانى بطعم الحياة"

حين ضغط على زر المسجل شدى بأول أغانى الشريط:-

- أنا والعذاب وهواك عايشين لبعضينا..

وإنطلق فى ريحها يدندن بإستمتاع، وأعد ترابيزة الكواء، ورص كومة الملابس الخاصة بأفراد المنزل - على مقعد مجاور- إستعداداً لكيها. تلك عادة قديمة ورثها عن والده كإحتفاظه بالمسجل والشرائط القديمة، فتأصلت بداخله، وأمست كطقس إسبوعى بإنقطاعه يشعر بالفقدان لشئ ما. تركت الزوجة المطبخ، وإتجهت نحو غرفة التلفاز التى تطل على الصاله التى رص بها أدوات الكواء، ومكثت تتابع برنامج طهى- لاتتوانى عن متابعته - وهى تغزل من خيوط "التريكو" "إسكارف" لأبنائها إتقاء برودة الشتاء. وحبت طفلتها الصغيرة صوبها بعد أن داعبت فتات الأرض، وتعكزت بصعوبة على أحد المقاعد، وظلت تعبر الواحد تلو الأخر بحركات ثقيلة، إنتهت بإستنادها إلى فخذ أمها التى إنتهزت الفرصه، فحاوطت رقبتها" بالإسكارف" حتى تتأكد من

مناسبته لها. فتملصت الطفله بضيق، وجلست على الأرض من جديد، وتركت الزوجة الخيط جانبها، وإنخرطت فى كتابة مقادير أحد الأطعمة التى يصفها الطاهى. فسحبت الطفله الخيط الذى إنسال طوعاً. وعادت تحبو نحو الصالة من جديد مبتعدة عن أمها. فرآها أخيها الذى يجلس – أمام والده – على ترابيزة الصاله، يذاكر الواجب الذى أعطاه له والده. فيضحك بصوت عالى، فتثير إنتباه والده الذى أنهى كواء القطعة تلو الأخرى. وإرتسمت على ملامحه إبتسامة لما فعلته الطفلة بينما سخر من زوجه التى لاتزال مستمعة بتأن للطاهى، ولم تعى مافعلته الطفلة. وراح يدندن من جديد أثناء إكمال الكواء، وترآى له مزق بأحد بنطاله. فتضايق، وإتجة نحو زوجته ثم طلب منها أن تداويه بسرعة حتى يتم كية. فأومأت بالإيجاب وهى منشغلة بمتابعة الطاهى. فبدا بعينيه بوادر شرر لاحظتها حين أطال الوقوف، فآثرت إتقاء المشاكل، فسحبت من جانبها إبرة الحياكة والخيط من صندوق الخيوط المختلفة. وإنسحب من مكانه منتشياً بنفسه كرجل مسيطر مسموع الكلمة. ونحت البنظالون جانباً تحت بند الإنسجام فى كتابة وصفة جديدة يعدها الطاهى. وتناست شأن البنطالون. وبين الحين والأخر يلقى عليه نظره عابرة فيراه بلا إعتناء وقد نُسى

أمره. فيتلهى عن وميض الإستشاطه التى تحرقه بالدندنه مع الأغنية التى يتغنى بها المسجل:-

- إنما للصبر حدود ...للصبر حدود ياحبيبى.

صفق المستعون، وعلا أصواتهم، وإختلط بأصواتهم العالية رائحة شياط تتسلل من المطبخ. فتقفز الزوجه من مكانها، وتهرع نحو المطبخ بسرعة كالبرق، ويتجه هو إلى غرفة التلفاز ليرص الملابس المكواه. فيرمى التلفاز بنظرة مدققه، فيرى شاشته قد تبدلت بمسلسل، وتفحص البنظالون الملقى جانباً فوجدة كما تركه. فتملكته ثورة حين أحس بأنه بلا تأثير وزاد من وهجها بكاء الطفلة التى زحفت نحو أمها، وتبدل الجو العام برائحه شياط فعكرته. ففتح باب الشقه عن أخره، وأفرج شرفات المنزل على مصراعيها. وإنطلقت المراوح تطيح بأثار الشياط. فإنفتح كصنبور مياة جارف يأتى على الأخضر واليابس. فقابلت هتافه بنظرات غاضبه. وتحاشته بحمل الطفله الباكيه، تحسستها ثم إتجهت بها نحو المرحاض بعد أن داوت أثار الرائحه. فيتبعها وهو لايزال مسترسلاً فى زعيق ولوم:-

- إذا كان كل همك متابعه البرامج والمسلسلات، فمن أين يأت الإهتمام بشئون المنزل؟.

تلاشته بتنظيف الطفله التى تقف أعلى الحوض، وأستمر فى رحلة التقطيم، وإفراغ شحنته، وإنطلق لسانه فى ترتيب مواطن قصورها التى كان يتغاضى عنها بدافع الحب، وأملاً فى أن تبدلها الأيام. فأحست بالحزن على نفسها، وكبتت ضيقها وحنقها بداخلها. وطفا آثار حديثه على وجهها المتجهم، وعلا بكاء الطفله كنذير، وتحرك الإبن من مكانه، ونظر بحزن لما يحدث. فلم تجد بد من مقابله الصياح بصياح. وتكييل الكلمات كما كيل لها، وتعرت صفات يمقتونها كانت تحت الثرى حرصاً على هيبتهما أمام الأبناء. أحتد الحديث، ونسفت القواعد والقوانين بدافع الكبرياء والتعنت. وعلا بكاء الطفلة أكثر فأكثر، وإمتقعت عينا الإبن بدموع ملؤتهما. فهوت دون نشيج أو نحيب. وزاد من إنهمارهما حين تحركت الزوجة نحو غرفة النوم تحمل طفلتها وهى تهتف:-

- لن أكمل العيش معك، سأترك لك البيت وأذهب لأعيش مع أمى.

تركها، وعاد إلى مكانه بالصاله ليتم كى باقى الملابس. وجلس الإبن بمكانه أمام كتابه يبكى بصمت. ولم يعقب الزوج على حديثها. آب الصمت لحيطات قطعته غمغمة حانقة تصدر عن الزوجة من غرفتها التى أغلقتها على نفسها. توقف الشريط، فوضعه على الوجة الأخر فباح المسجل-

- لأ مش أنا اللى أبكى ولا أنا اللى أشكى لو جار عليا هواك. أنا قولتها كلمة وكل شئ قسمة ودى قسمتى وياك.

لمسته كلمات الأغنية. فتملكه الكبرياء، وحين إستمع لنشيج إبنه الذى إنكب على كراسته. تملكه الهدوء والرغبه فى الإصلاح، وندت عن غرفتها -ترتدى ملابسها- بعد وقت طويل قد همت بإطالته. فإنهمرت دموع الإبن، فحرقت قلبها ومزقته بسكين، إتجهت صوبه، وحاولت أن تخفف عنه وتحدثه بعطف وحنان:-

- ذاكر كويس، كل كويس، بابا هيوصلك المدرسه وأنا هاخدك فى نهاية اليوم، خد بالك من بابا.

قبلته، ولم يعاجله لسانه بالإجابة على أمه أو إثناءها على ما أقدمت عليه ، فأصابه الصمت المطبق. ونظر إليها فى رجاء بالبقاء. حملت الطفله وصارت نحو الباب، وقد كسا وجهها حزن

أخفته بكبرياء وعند حين لم ينبس زوجها بكلمه تعوقها عن ما أقدمت عليه. تلاشى النظر إليها بالإنغماس فى حياكه البنطالون وحين لم تجد سوى ظهره خير رد. كتمت حزنها، وإنتعلت حزائها، وقد بدا إنها تكابد صراع داخلى مابين تنفيذ التهديد وعدم القدرة على مغادرة مملكتها، فحسمت صراعها بحمل طفلتها وحقيبتها فى كبرياء أصرت على إظهاره. إتجهت نحو الباب ثم خرجت وصكته إثرها بعنف. ترك البنطالون وإسترخى على مقعده كالمهدود الذى نخر جسدة الضعف. وأسند إبنه جبهته فوق يديه. وتدارى عن الأعين، وترك لعينيه العنان، وعلا نشيجه وبكاءه. فأوقع أبيه فريسه بين كبرياء العقل وضعف القلب، فيبُث الدم فى قدميه فتطاوعه للعدو إثرها تارة، ويهده العند فلاتتصاع له تارة أخرى. حالة من الصراع تنهشه لفترة قصيرة جداً قضى عليها بالإنطلاق دون إرادة نحو الباب. فإنتعل حذاؤة وهندم ملابسه فى مرآة علقت إثر الباب، مشط شعره المشعث ثم فتح الباب بسرعة فائقة. فرآها أمام الباب بازغه كالقمر فى ليل حالك تكابد صراع مختلط بين البقاء والعند والمغادرة. فتحدثت وهى تحاول إخفاء دموع غرغرت عيناها.

- ممكن ١٠ جنيه عشان المواصلات.

فإرتسمت على وجهه إبتسامه، وتخللتها ضحكة خفيفه. وغلفتهم قطرات المطر التى هبطت من بين فتحات التعشيقة الخشبيه أمام باب الشقة التى تقبع بالدور الأخير، فإنتزعها للداخل، وإحتضنها كما إحتضنتهما جدران الشقه. وتشبث الإبن بساقى والديه فرحاً. وتبدلت رائحة الحزن بطعم السعاده وشدى المسجل بأخر أغانى الشريط:-

- ما أحلى الرجوع إليه ، ما أحلى الرجوع إليه.. إليه.. إليه.

"تمت"

"أحلام فى درج المكتب"

تتذكر حين رأيناه ، يومها كنا نجلس بمقهى الفنانين بوسط البلد، وكنت تسعى لشق طريقك للعمل بالفن. وكنت أنا مغرم بتعلم العزف على العود. لحظتها قطع علينا أفكارنا وطلب بوداعة:-

ممكن أعزف؟

حينها وضع (القهوجى) قدح الشاى، وبطريقة لا إرادية أعطيته العود، فبدأ يرتشف ثم يدندن على العود، وبدأنا نستمتع ببراعته فى العزف. وسبحت عيوننا مع حركة ريشته بين الأوتار. وسرحت أسماعنا لجمال الألحان التى لا نعرفها. وحين ينتهى يشرع فى لحن آخر ولا يهتم بالإطراء. أعجبنا عزفه. وحين تساءلنا لمن اللحن الذى يعزفه. توقف عن العزف، تحدث بلهجة ناصحة متحسرة وهو يمد لى العود:-

- إن كان لديك حلم فلا تتخل عنه، فالماسك على حلمه كالماسك على جمرة من نار.

وبدأ يحكى عن نفسه بطريقة سحرتنا، فقص لنا عما إبتدعه من ألحان، وكم الفنانين الذين شدو بما أبدع. وحين تساءلت عن أسمائهم ، تلاشى الرد بالغوص بنا فى عراك عن ألحان تم سرقتها منه والأن نسمعها لمطربين مشهورين. فبقدر ما تيمتُ بعزفه بقدر ما أحسست بعدم الصدق فى حديثه. وتعاطفت معه كإنسان يعيش على أطلال حلمه الذى مات رضيعاً. فنما بداخلك خوف من مصيره. فأتى على ماتبقى من قدح الشاى، وكأنه يبتلع به كذبه، وربما أحس بما ساورك تجاهه فآثر المغادرة، ولم يدفع ثمن الشاى. منذ تلك اللحظة ونحن نتذكره، ونستغرب شخصيته، ونحتار ونتجادل فيها. فكان دافعاً لك للعدو وراء الحلم، ومصدر يأس فى لحظات أخرى .

على نفس المقهى، رأيناه يردد نفس الحديث لمجموعه من الشباب، ويفعل نفس الأفعال كما لو أن شريط الأمس يعاد بحذافيره. يغادرهم دون أن يدفع ثمن الشاى، ويتركهم مفكرين – فى شخصيته وأسلوبه – كما تركنا. فتتبعناه، وملئتنا الدهشة حين رآيناه يعمل ساعياً بنقابة الموسيقين. فيتلاشى النظر إلينا، ويضرب جسدك نكزة خوف لاشعورية حين تأكدت من صدق إحساسك ناحيته. فأخافك، ولم يغادر مخيلتك حتى تسلل ليقبع فوق الجدار المواجة لفراشك، فدفعتك هيئته نحو طريق الحلم

كفريسة مذعورة من فقدان الطريق والضياع. فسئلت عن ميعاد التقدم لمعهد السينما. وعلمت أن من أساسيات الشروط أن تكون حاملاً للشهادة الثانويه أو الجامعية. حينها قررت أثناء إجتماع الأسرة – وقت تناول الغداء – أن تعرض بعزم وجدية ما إتخذته من قرار، بترك الجامعة التى تدرس بها، وأن لك مطلق الحرية فى إتخاذ أى السبل كما تشاء. يومها لم تجد سوى سخرية والدتك التى ملست جبهتك لعلك أصبت بالسخونة، وهزلت من أفكارك وأعادنها فى ذلك إخوتك الذين وقفوا من الفن موقف العداء إلا الوالد الذى حدثك بحكمة:-

- وما المانع أن تفعل ماتهوى، ولكن عليك إنجاز جامعتك ثم أدرس ماتشاء. فأنت فى السنة الأخيرة.

بقدر حنقك من الجامعة بقدر ما إقتنعت بمنطقية والدك الذى أكمل:-

- لكن لا تطلب أن أوفر لك عمل كفنان. فحينها لم يكن بمقدورى سوى أن تكون موظف مثلى.

يومها لم تتقبل فكرة أن تكون موظف. وكلما رأيت وجه عجوز المقهى تدرك بأن الحلم يبتعد.

فإندفعت نحو المعهد ضارباً بكلام والدك عرض الحائط، ودفعت مصاريف الجامعة التى تدرس بها كرسوم للمعهد من أجل أن تكون طالب إستماع بلا مميزات سوى حضور المحاضرات فقط. فى ذلك اليوم لم يجابهك وجة العجوز على الجدار فإنتابتك نشوة الإنتصار، وأدركت يومها بأنه الوجة الحقيقى لليأس والفشل. فإتخذت ظهورة وإختفاؤه كمؤشر على صحة الطريق من إنحرافة. حاولت أن تقيم العلاقات مع طلبة المعهد، وإنقطعت عن الكلية التى تدرس بها، وإنغمست فى تعلم المفاهيم الإخراجية، وأدخلت النت لتطلع على الأفلام التى يُطلب منك مشاهدتها. فأدمنت السينما ونسيت الفتاة التى لم تحب سواها منذ أول سنوات الجامعة. ولم تستطع هى أن تنساك ، فقبلت أن تكون الثانية فى قلبك بعد السينما، فقاسمتك مجلسك بالمعهد، وأعانتك فى التغلب على وحدتك وسط الطلبة الذين يعرفون بعضهم. وإسترقت السمع إلى الأحاديث الدائرة. فعرفت مكتب الأستاذ الذى أحببت السينما على يده ولم تراه. هرست أفلامة كامله ومضغت مضمونها، فكان طريقاً مفروشاً بالورود نحو الثقافة والإطلاع ومحاوله إقتناء الكتب. ذهبت إلى شركته بشمبليون متأبطاً فتاتك لأجل أن تعمل معه مساعد تحت التمرين. وتقمصتوا مشهد من فيلم "القاهرة منورة بأهلها" كإستعداد للحديث المحتمل. فتحدثت إليها:-

- شوفلنا شغلانة معاك؟.

تجيب فتاتك بلهجة شاهينية متلعثمة:-

- أنت ممثل؟، معاك شهادة من معهد التمثيل؟

لحظتها صعدتم درجات السلم، يكسو الضحك ملامحكم. فقالت فى قلق:-

- ربنا يجعله خير.

أكملتم خطواتكم نحو مقر الشركة التى يقبع بها مكتبه، وبداخلك كم من الحكايات عن مخرجين لم يكونوا بالأمس شيئاً ولم يدرسوا وأصبحوا- بفضل فرصة- مخرجين. قبل أن تدخل الشركة قابلت ممثلة المفضل ومكتشفه، فقصصت له ماجئت من أجله، فأعطاك دفعة حماسيه وقال:-

- الأستاذ لن يمانع أبداً.. بالتوفيق.

وطأت أرض الشركة المتدثرة جدرانها بأفيشات أفلامه التى صرت مدمناً لها منذ أول فيلم رآيتة له فى سينما بوسط البلد. كنت يومها

فى صحبة فتاتك التى لم تتركك أبداً، وكانت معيناً لك حتى فى لحظة إنكسار الحلم على عتبة السكرتيرة التى قالت:-

- الأستاذ مش موجود.

صرت فى الطرقات محطماً، وعزيت نفسك بمشاهدة الأفلام وقرأة الكتب حتى لاتخلد للنوم فى الليل حتى يشرف الصباح. حادثتك ساعتها الفتاة، فلم تستطع إطالة الحديث معها. فصوتك مكتوم وصدرك يجهش بالكآبة. فتتعلل بالخلود للنوم. تغلق الهاتف، فلا تنام، فيجابهك وجة العجوز جلياً ككابوس لاتستطع الفكاك منه. يطاردك أينما تخلو إلى نفسك. فتنتفض متغلباً على أزمتك ولا تستسلم، وتخلق لنفسك أمل جديد فى رحلة السعى. تمر الأيام، وترى إعلاناً على الإنترنت، تطلب فيه شركة إنتاج سينمائى ممثليين ثانويين للعمل بفيلم سينمائى. ذهبت للشركة فى الميعاد المحدد. يملؤك رغبة فى مقابله المخرج، فلا تجده، وتعرفت على المساعدة التى قبلت بصدر رحب أن تعمل مساعد لها. فى تلك اللحظة، أحسست بأنك على أول الطريق. وقفت وراء الكاميرا. وبدأت تشاهد الفتايات والفتيان والسيدات والرجال والعجائز، كلاً أمام الكاميرا لما أخذ من أدوار. تنتهى الأدوار بمجرد أن تقول

المساعدة: cut– أقف بروفايل، أسمك، عمرك، رقم هاتفك، سبق لك العمل بالتمثيل.

كانت الأيام مثل بعضها، لا جديد، ولم تتعلم شيئاً، فهذا ما لم تتمناه، الشئ الوحيد الذى أسعدك هو تعامل الجميع معك بمبدأ مساعد المخرج. فبقدر ما أسعدك بقدر ما أحسست بالرتابة. سألت المخرجة أن تنزل موقع التصوير، وعدتك ولكنها كانت تسوف، وأنت مللت، وأقدمت إمتحانات الكلية، فإمتحنت بلا رغبة، وأعانتك فتاتك التى أحسست بأنها الأرض الرطبة التى التى تهون عليك شوك الفشل، نجحت، وكان دافعاً جيداً لأن تنهى الترم الثانى من السنة الأخيرة بسلام. وكان دافعاً أكثر تجاه السينما. فبحثت عن مكاتب المخرجين العظام بحماسة وشاهدت أفلامهم، وتابعت المهرجانات العالمية وتمنيت بصدق أن تطأ "الريد كاربت"، وأثناء رحلة البحث إصطدمت بدعوة عامة بفيلا مخرج كبير يقيم معرض للكتب واللوحات، هندمت نفسك، وذهبت وحدك دون فتاتك فقد أحسست بفشلك الدائم أمامها. وإنزويت فى ركن لتتابع الجموع الزاحفة من شباب وعجائز داسوا تراب الفن فعفروا الوجوة بإبداعهم. حاولت أن تتبع بعيناك سير المخرجين العظام داخل المكان دون أن تتحرك. فبقدر ما أحسست بأنك وسط العالم الذى تحبه، بقدر ماشعرت بالوحدة والنبوذ. ولم تجد نفسك سوى

جملة إعتراضية فى خضم الجموع. لايهتم بك أحد سوى كومبارس ضال يشبة خلقة فنان كوميدى شهير. أخذ يضحكك حين يقلدة، ويحزنك حين يحكى بجدية – تشبة جدية عجوز المقهى– عن طلب الفنان الشهير أن يمثل دوره وهو صغير فى عمل درامى ضخم. حاولت أن تتلاشاه فحسبك وجة واحد يبارزك فى ليال الفشل وضياع الحلم. إبتعد عنك، وهو يترفع عن مجالستك، مدعياً إنتسابة لمن فى المكان، وبدأ يداعب السائرين بطريقة الفنان الشهير، فضحكوا كما ضحكت. وحاولت أن تتناساه فأضعت الوقت بمتابعة الكتب التى لاتملك ثمنها. مر الوقت، ومللت الوحدة، فهممت بمغادرة المكان، وأمام باب الفيلا، قابلت مخرج مفضل لديك، فسألتة بإستحياء وخوف:–

– ممكن أشتغل مساعد تحت التمرين مع حضرتك؟.

– أنا لا أعمل الأن.

لُجم لسانك من إجابته، ولم ينتظر تعليقك على حديثه، فإحتمى بسيارته، وإنطلق، وتركك تكابد مرارة الليل الحالك كطفل ضل الطريق. هُمت على وجهك، فرأيت الوجوه السائره كشبيه الفنان الكوميدى تارة وعجوز المقهى تارة أخرى. فتلاشيت النظر للوجوة

كمصير تخافه. وإحتميت بالحديث إلى فتاتك كمحاوله للنسيان، فساعدتك للخروج من كبوتك الجديدة ، أنهيت دراستك الجامعية، تمر الأيام، السقوط دائم والحاجة إلى الأموال أمست رغبة ملحة. الكل فى نطاقك يعمل، وأنت فى نظر المجتمع بلا فائدة، والفتاة بجانبك تحسب سنون العمر التى تنفرط أيامها، وتتساقط فرصها كشعيرات رأسك الذى بدا يجتاحه الصلع، وتأبى نظراتها المكتومة أن تقف بصفوف العنوسة. تحت ضغط الحياة والشهوة والحب والجنس ونظرة الأسرة وقلة المال. قبلتُ العمل بالشركة التى يعمل بها والدك كأبناء عاملين. ووجدت فى إدخار المال إعانة على تحقيق الحلم وإبقاء الفتاة بجانبك، وإطمئنان للأسرة على مستقبلك. أودعت مرتبك رهن جمعية أقامها الموظفون بالإدارة، فلايزال الحلم يدق عقلك، سألت عن ميعاد التقدم للمعهد. فتذكرت بأن الدراسة صباحية، فبحثت عن الدراسات الخاصة فإرتطمت بالمصاريف عالية القيمة. تشابكت السبُل وكأنها لا تقبل بأنصاف الحلول.الشهوه بارزت الحلم بداخلك. وئزت الفتاة فوق رأسك كذبابة تطالب بحقها فى الزواج، أنت تشاطرها فى ذلك الرغبة، فقررت أن تتزوجها على أن تبحث عن الحلم بعد الإستقرار. حينها إنتقل وجة عجوز المقهى من غرفة بيت والدك إلى غرفة بيتك الجديد. تأكدت حينها أن الحياة تجردك من الحلم بهدوء، أحسست

أنــك لســت كمــا كنــت، فأهــدتك الحيــاة بارقــة أمــل طفــت علـى السـطح حـين أعلنـت الشـركة التـى تعمـل بهـا عـودة فرقتهـا المسرحية. يومها أحسست بأن الحلم يتعافى بعد طول الركود. لم تهوى الإخراج المسرحى، فمثلت فى رحلة التخبط ومحاولة إلتقاط الخيط من جديد. حينها أثنى عليك الجميع، ولم يفترشوا لك سلم الفعل وأكتفوا بـالقول. فلم تعبأ بمـا حـدث حتـى لاتستسـلم لليـأس الـذى يـنهش الجسـد. فإجتمعـت بـزملاء المسـرح والمحبيـين للفـن– بالشـركة– علـى مقهـى بوسـط البلـد، وتلاشـيت ذلـك المقهـى الـذى إلتقينا بـه الرجل العجوز، وتحدثتوا عن السينما المستقله، والأفلام القصيرة والمهرجانات التى ترعاها، وإتفقتوا على اللقاء يومياً علـى ذلـك المقهـى ولـم تتفقـوا علـى الفكـرة. وتعلـل الجميـع بعـدم قدرتـه علـى المسـاهمة فـى شـراء كـاميرا تعينكم علـى صـنع فيلم قصـير. إسـتولت عليك فكرة شراءها، وحين إتخذت القرار وضـعت أمـوال الجمعيـة رهـن ولادة الإبـن الأول الـذى وطـأ الحيـاة . فرحـت بـه، وأمسـى لايفـارق ذهنـك، حتـى إذا مـا أنهيـت عملـك تنطلـق إلـى المنزل حتى تراه، حين يبكى يتقطع قلبك فتصيح فى حبيبتك أمرها أن تهـتم بـه وتطعمـه وتهدهـده. حتـى مشـروب المقهـى والمكتـب تنازلت عنه من أجل إحتياجات الإبن. وقتها تذكرت كلمة زملاء العمل –كما تذكرت إعتراضك عليها– حين تتزوج ستنسى كل شئ

تحبه ولن يشغل بالك سوى الأسرة وحاجاتها. فأمنت بأن ليس من حقك فى أن تستمتع بالحياة بل كل الحق للإبن بأمتع حياة. تنازلت عن الحلم طوعاً من أجل واقع لابد أن تقبله كقبولك للحلم وإستمتاعك به. مع مرور الأيام ، تلاشى السعى وراء الحلم ، وبقى السعى وراء لقمة العيش. فإنخرطت فى صراعات العمل الذى لم يكن ذا بال فى عهد مضى. وأمسيت تنتظر العلاوة لمواجهة الغلاء ووخزات الأسعار، وبت تقضى على التمرد بالإنبطاع والسير جنب الحيط، وأمست أقصى ذكرى تعلقك بالحلم القديم مشاهدة فيلم بعد أن كنت تشاهد ثلاثة أو أربعة أفلام يومياً، تلك الأفلام التى أهلتك لأن تكون كائن مختلفاً- بالعمل- وسط عقول داهمها العقم. وألهتك الحياة عن الأطلاع فأمسيت لاتهتم سوى بالإطلاع على أسعار السلع والحصول على بطاقة التموين، وكان هذا سبباً كافياً لأن تتأقلم مع وجه العجوز الذى أصبح لايخيفك هيئته. يومها كان شغلك الشاغل تأمين مستقبل الأبناء الذين توالوا مع الأيام. فتناسيت الحلم مع الترقى، أصبحت رئيس قسم، ودهستك عجلة العمل الحكومى فصرت إحدى تروسها. الأيام تعيد نفسها. فمكثت على رأس الترابيزة أثناء تناول الغذاء كوالدك تماماً. وهيئت نفسك جيداً لأن تقول لإبنك نفس الإجابة التى قالها والدك حين تمنيت أن تشذ وتدرس السينما.

الفرق الوحيد بينكم أنك إقتنعت إقتناعاً تاماً بالنظرية التى تقول لكل مجال ومكان أهلة وورثته ومن لم يكن له فمثواه الجحيم. هذا أول شئ قررت أن تعلمه له، هكذا تعلمنا ، وهكذا أخبرنا المسئولون وهكذا تأصل بقلبك وبعقلك. تدرجت مع الأيام حتى أصبحت مدير إدارة، حاولت جاهداً المحافظة على مكانتك، وحكيت عن أحلامك كطيش شباب. جعلتك سكرة المنصب تتأكد بأنك فى الطريق الصحيح، تعبت وعملت وزادت قدرتك على الطاعة لرؤساءك، فجمعت المال، وأصبح كل همك أن تكون مدير عام حتى تضمن المعاش المناسب للحياة التى تلقى بأسورة قيودها حول رقبتك. الأن أنت تجلس على مقعد المدير العام وقد وصلت لبغيتك. فى ختام الحديث هل تشعر بالسعادة حقاً أم تحزن لفقدان الحلم؟.

- هذا ما أسأله لنفسى. حين أنظر فى المرآة أرى فى ملامحى وجه العجوز حد التماس فيتأكد لى إننى ضللت الطريق وإن ماكنت أخافه صرت بإتجاهه بسرعة كالبرق. وإحتفظت بما كنت أحلم به فى درج المكتب.

"تمت"

"إتفاق تحت كوبرى أكتوبر"

تحت سكون الليل ، وأضواء الإعلانات الكبيرة التى تفترش شارع الجلاء، وأبواق السيارات المندفعة. صرت وحدى بين أفكارى الكثيفة تدفعنى رغبة الوصول للمنزل، وأملاً فى الراحة بعد عناء العدو اليومى وراء لقمة العيش. توقفت على حافة الرصيف تحت كوبرى أكتوبر إستعداداً لعبور الطريق بإتجاة موقف الأوتوبيس. وإذا بصرير سيارة مرسيدس يشرخ أذنى. وتمرق من جانبى بسرعة جنونية كادت تصدمنى. فقد إستغل سائقها الطريق الخالى ، وإتخذ دوران عكسياً يتنافى مع قواعد المرور ليصعد كوبرى أكتوبر بإتجاة رمسيس. فتراجعت بحركة لا إرادية. وإنشقت الأرض عن أمين شرطة لم أرمقة رغم نظراتى المتفحصة للمكان. وإندفع بسرعة أجن من سائق السيارة . وتصلب كالمستميت أمام عجلاتها. فتوقفت عن السير. وإقترب من النافذة التى أُسدل زجاجها الفامية. ودارت محادثة بينهما، وأعطى على إثرها السائق الرخصة للأمين. فأخذها وصار مبتعداً عن السيارة بخطوات بطيئة . وأخرج دفتر ليسجل بة المخالفة. ووقفتُ إثر عمود

أسمنتى – يحمل كوبرى أكتوبر على كتفيه – متقمصاً دور مصور صحفى يتقصى بعدستة حدث جل. وسرعان ماترك السائق سيارتة الفارهة. يتلفع ببدلة أنيقة كملامحة التى تبدو عليها رغد العيش. وفى لحظة خاطفة تمت علاقة طردية تنازل بموجبها الأمين عن تشبثه بالرخصة، فى نفس الوقت الذى تلقت بة يدة ماتكورت بة يد السائق من أوراق، فدسها الأمين بجيب بنطالونة. فإقتضبت ملامحى، وتملكنى الضيق، وتحركت قدماى نحوهما، وعيناى ترمى بشرر. فإتجة السائق إلى سيارتة ، وإنطلق بسرعة كالبرق، ولمحنى الأمين، فتلاشى النظر إلىً بالنظر إلى دفتر المخالفات. فهتفت بحدة:

- **لما أعطيتة الرخصة؟.**

تعقد حاجبية وأظهر الإستغراب . وطفر الإرتباك على وجهة . ولم يجيبنى، وصار معطياً ظهرة نحوى . فتشجعت وأكملت بصوت عالى:-

- **كم أعطاك؟.**

إلتفت ناحيتى بحركة لم أتوقعها. وعاجلت يدة وجهى فطبعتُة بعنف. وإنشقت الأرض عن بعض زملأوة على الناحية الأخرى

من الطريق . فتبدلت لهجتة الدفاعية لهجومية بحتة وقال بصوت أجش:

- **بطاقتك؟.**

فتلكأت عن إخراجها، وتشتت العقل ، وتملكنى الخوف والفزع . ومرقت سيارة مسرعة، فصرخت بكلاكس قوى .وإمتزج صوتها بصوت أخر مقزز يغنى مترنماً ومترنحاً بطريقة شعبية:-

هل راى الحب سكارى !!!!!!!!!! مثلنا كم بنينا من خيال حولنا!!!!!!!!!!!!!!!!!!.

ووجدتنى لم أبارح موقعى إثر العمود الأسمنتى . ملجم الفم ، تتسلق الدهشة كامل وجهى. فقد إختفيا السائق والأمين . وإنشقت الأرض فإبتلعتهما. وأبدلتهما بشاب سكير يشدو ويتبول مكانهما معطياً ظهرة نحوى ، ثم يدور فى مكانة ببطء متاملاً السماء ، وهو لايزال يسقى الطريق دون مبالاة كالاطفال، حتى أمسينا وجهاً لوجة . فتراءى لى عضوة المسدد نحوى، وكادت نافورتة أن تطولنى . فإنطلقت مبتعداً تلاحقنى ضحكاتة العالية وإنتشاؤة بالغناء. وأكملت طريقى للمنزل وأنا أكابد مشاعر وأفكار تتدهسنى مابين الرغبة فيما كنت أود قولة ومابين الخوف من

تبعات القول . ولمتُ نفسى على الصمت. فوجدت فى مستقبلى خير عزاء . وأدركت رسالة السكير . فنظرت إلى السماء. وذبت فى تأويلاتها.

" تمت"

"السائق والقطيع"

اليوم شان كل يوم. والساعة ليست بأحسن من مثيلتها بالأيام السابقة. الجو حارق، الشارع مختنق، والطريق مزدحم بالسيارات التى تحبو كطفل بإتجاه الكوبرى، المنفذ الوحيد للشارع المحتقن. الحشد من الواقفين يتكاثرون كيوم الحشر، والوقت يتسرسب بسرعة العمر، والميعاد الرسمى للعمل يقترب، ولم يات "ميكروباص" لينقلنا من أماكننا، بينما يحاول رجال المرور بمحاولات بائسه لإنهاء حاله التجمهر غير المقصود، وتسييل حركة الطريق، تقف بعض السيارات الكبيرة على جانب الطريق لتنقل بعض من الحشد المتصلب بمكانه، بينما تنتظر الاكثرية"ميكروباص" بعينه ينقلهم إلى ميدان التحرير. فتتناقل كلمات التساؤل- بين الأفواه- عن أسباب الإزدحام. ويستقر الحديث عن إصلاحات بأعلى الكوبرى. فيلتقم عجوز يتحرك ببطء وسط الواقفين ماقيل، وأخذ يقذفه لكل من يقابله فى طريقه، حتى إستقر به الحال جانبى. فتحدث:-

- وكأنه يوم الحشر.

أومأ مؤكداً على حديثه دون رد. وأنظر بساعة يدى فإذا بعقربيها يتسارعان فى رحلة العدو، ويترأى نصب عيناى إنذار الجزاء والخصم كبندول لايهدأ جيئاً وذهاباً. أمعن النظر فيما حولى لإلهاء النفس عن التوتر من طول الإنتظار، فألمح من يعبر الطريق لينضم للحشد اللاعن للزحمة والطريق والمسئولين من طول الإنتظار بلا جدوى. فيبدو على ملامح وجهى تلقائياً حالة من الضيق والزفر. يقتنصها العجوز ليخلق مجالاً للحديث، فيستطرد:-

- حاله من الغوغائية يرثى لها، الكل يسير حسب أهوائه.. متى سينتهى ذلك الأمر؟.

أشير له بما يفيد عدم المعرفة دون أن أجيب. وينمو بداخلى التساؤل. هل بدا على ملامحى ماجعله يتفوه بما قال؟. ثم يقطع تساؤلى الغير معلن. متحدثاً فى ضيق وحدة:-

- لماذا لا تجيب؟.!

أتصنع الإبتسامة، وأتحدث بحنق مكبوت:-

- هكذا أكون فى الصباح. أفضل الصمت. وأحتاج لوقت كاف حتى أعى ثم أتحدث.

حينها يقطع دابر الحديث، تحرك الواقفين- من شباب وفتايات ورجال وسيدات- بطريقة غير منظمة نحو الطريق العكسى الذى تهبط منه السيارات مسرعة. فأصوب بصرى نحو هدفهم، الذى يعدو نحوه بين العربات التى تسير ببطء على الشريط المزدحم، فأرى " ميكروباص سرفيس"يقف على الطرف الأخر.لاينادى سائقه بما يفيد أى الجهات السائر نحوها. ولاريب فى أنهم ألفوامن نوع "الميكروباص" أنه المنشود. فإنطلقوا نحوه بلا تفكير، وعبروا الطريق كلً حسب سرعته وماتوافر له من طاقة.ولم يعبئوا بالسيارات السائرة وقواعد المرور. حين ألتفت جانبى، لم أجد العجوز. حينها كان قد وقف على الرصيف الفاصل بين الإتجاهين متأهباً للعبور، محاولاً اللحاق بركب اللاهثين. فتذكرت الوقت والجزاءات والعمل. فسارعت دون وعى وكأننى أحسست بعصا الراعى تلاحقنى فإلتحقت بركبهم. أضحك ساخراً من نفسى حين أحسست بتضاربى بين ما أكننته من غيظ لأسلوبهم وما فعلته من مشاطرة لما فعلوا. أصل نحو" الميكروباص". لحظتها لم يكن أحداً قد وطأ أرضه. بينما تناثروا حول الشرفات والسائق- الجالس إلى مقوده- فى محاولة جادة لإقناعه بنقلهم بعد أن كلوا

مـن الإنتظـار. فيتمـادى فـى الـرفض المصـطنع بينمـا لـم يـدرك الـواقفين ذلك. فيستمروا فيما هم عليه، حتى قرر السائق – بعد إلحاح– السير ونقلهم، ففرحوا ثم فرض أول شروطه:–

– لن أكمل الطريق حتى آخره.

وإختار مكان بعينه يكون نهاية الطريق. فإنقسم الواقفين بين مؤيد فارحاً ومعارض ناقماً لما قال. فمنهم من ركب موافقاً على ماقاله السائق، تاركاً زميل لحظات الإنتظار يعانى ويلات المحايلة على السائق، ورفعوا لافتة كل نفس أولى بنفسها، وحاول من لم يعجبه حـديث السـائق بـالإعتراض، وحـث الـراكبين علـى عـدم الركـوب، ولكـن دون جـدوى. فتحـدث السـائق بلهجـة جـادة ممزوجـة بخبـث خفى:–

– لم أكن أريد التحرك. أنتم من تحايلتم. فتحركت لنجدتكم بناءاً على طلبكم.

حينها يشاطره الرأى بعض الذين إمتلئت بهم سيارته، ويروق لهم ماقاله، ضاربين برجاء زملاء الإنتظار عرض الحائط. فأتوجس منه لما طرأ عليه من الدهاء. إن كان لايريد حقاً تحميل سيارته فلم وقف بهذا المكان؟!. لاشك فى أنه وصل– بتمزقهم– لما يريد،

وبلـع الـواقفين الطعـم، وإلتقمـوه كالضحية.سـرعان مـا إمتلـئ" الميكروبـاص" عـن آخـره، فيمـا عـدا المقعـدين بجانبـه. وأبـى أن يشـغلهما إلا بشـخص واحداً، يـدفع أجرة المقعدين معاً. أتضـايق، وأود لو ألقى فيض غضبى عليه فأحرقه، وما ثوانٍ إلا وتقدم فتاه طاغيـة الأنوثـة، فيسمح لها بـالجلوس جانبـه. حينها كـان قد أنهى تنظيف زجاج سيارته، ثم جلس إلى مقود السيارة. ولم يتحرك بعد. فلـم أجـد مـن يجيـب إسـتغرابى سـوى رجـل يعـرف" السـائق"، يقبـل بإتجـاه " الميكروبـاص"، فيصـافحوا بعضـهم، ويركـب بينـه وبـين الفتاه. سرعان ما أنظر بدونية لذلك السائق الذى يستقى من يركب بجانبه ممن يروقوا له. بدأ يدير المحرك إستعداداً للسير، فتلاحقه لعنـات الـواقفين الـذين لـم يركبـوا، ولـم يعجبهم قراره. ولـم يسلم مـن تلك اللعنات من ركب صامتاً ومن لم يصمت وأثنى على السائق. وبدأ يتحرك خلفاً ليتخذ ملف عكسياً حتى يصبح أمام الكوبرى مباشرةً، لحظتها قال:-

- الأجرة موحدة، محطة مثل إثنين مثل أخر الخط الذى لن أذهب إليه. ومن لم يروق له الأمر. فبإمكانه المغادرة.

حالـه من الصمت تسود الجالسين كالمقاعد الضيقة والغير آدمية التى لا تتسع الفواصل بينها إلا لأصحاب السيقان القصيرة. لاشك

فى أن السائق قام بتغيير تركيبتها التى صنعت عليها لتحمل أكبر عـدد ممكـن... حـين تحـرك السـائق، كنـت أجلـس بـأخر " الميكروباص" إلى جانب "عجوز المحطة" الذى أقنعنى بالركوب جانبه. قائلاً:-

- لن تجد مواصلات وبالتالى ستتأخر. أركب، وسير نصف المسافة ثم لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.

أتضايق من نفسى، وأدرك أننى أفعل ما أرفضة دون قدرة على الإعتراض. أنظر من الشرفة قبل أن أدفع الأجرة لعلى أجد سائق أخر. ولكن دون جدوى. ويدوى صوت الأغنية الشعبية" شحط محط خد فوق وتحت" كقرار أخر إتخذه السائق ضمن حزمة من القرارات التى لم يعترض عليها أحد من الراكبين. ولم ينبس أحد بلفظ إعتراض على علو المسجل وكأننا بفرح شعبى. إلتزامنا الصمت والحياد. ولم أكن أعلم بأن فى ذلك جريمة يعاقب عليها الضمير. يستمر السائق فى الرجوع للخلف ببطء فى حالة من الحذر.فينظر فى المرآه الجانبية تارة والأمامية تارة أخرى، إستعداداً لكى يأخذ ملفاً عكسياً مختصراً زحمة الطريق. فتلك عادة لايعاقب عليها القانون لأنه يحل أزمة الإزدحام، وعملاً بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة. يضغط دواسة البنزين بطريقة دفعت السيارة

للخلف بسرعة تفقده السيطرة عليها. فيصطدم بسيارة حديثة"الموديل". تهبط بسرعة من أعلى الكوبرى، يقودها رجل في الخمسين من العمر. فيتوقف السائق فجأة، وينظر فى المرآة الجانبية لسيارته. فيتلاحظ له– كما يتلاحظ لنا– أن مالك السيارة الحديثة، يحاول النزول عن سيارته ليتعارك مع سائق "الميكروباص"، ولكن آثار الإصطدام أعاقت باب السيارة الحديثة عن الإنفراج. يرتاع السائق، ويهرع نحو الطريق الخالى أمامه، متخلياً عن فكرة الملف العكسى، فيعاجله "مالك السياره الحديثة" بسرعة جنونية، ويتحول الطريق الخالى إلى صراع بينهم. دون أن يعبأ السائق بنا. فنميل يميناً ويساراً طوعاً فى إنتظار ماسيسفر عنه الحدث. وألتفت لأنظر خلفى، فإذا "بمالك السيارة الحديثة" يحاول جاهداً أن يخلق لنفسه طريقاً– بالمراوغة– ليعيق السائق عن المضى وشل حركته. فلم يسمح له سائق "الميكروباص" الذى أطبق على كل تنفيسه هم بإختلاقها. أحست أننا رهائن، ويحاول"مالك السيارة الحديثة" تحريرنا. وتحولنا إلى مشاهدين وكأننا خارج إطار اللعبة، إلا مارحم ربى من طراطيف أحاديث لا ترتقى لسماعها بوضوح، ممزوجة مابين الدهشة مما يحدث والضيق لضياع الوقت والتأخير على العمل. لحظتها لم أشك فى تعاطفى الكامل مع"مالك السيارة الحديثة". وروحت أتمنى بصدق

أن يلحق بسائقنا فيلقنه درساً لن ينساه أبداً. ووددت لو أتحدث ولكن فجأة لم يعد خلفنا، بل صار بجانبنا، فيضغط دواسة البنزين بسرعة فائقة ساعدته فى ذلك سيارته الحديثة. وأخذ يوجة حديثة للسائق متوعداً ومزداناً بأفظع العبارات. بينما يتفصد العرق من وجهه، واالضجر والحزن يتشعبا ملامحه، والإستغراب لصمتنا. ومابين مايلعن به السائق من كلمات ومابين إتباع الطريق هدأ سائق" الميكروباص" فجأة. وأحسست بأنه يستسلم "لمالك السيارة الحديثة "الذى بدأ يضيق عليه، وتخطاه. ولكن" السائق" كان لديه قدر من الدهاء. فينعطف فجأة إلى شارع جانبى يؤدى إلى منطقة عشوائية. فإرتمي بفعل تلك الإنعطافة المفاجأة على العجوز بجانبى، فيرتمى بدوره على فتاه جانبنا. فتصرخ كما صرخ معظم من فى "الميكروباص". فتنكسر السعادة حين ضاعت نهاية السائق. ويرتاع قلبى، ويضيق صدرى، وتتهتك أوصالى حين يتخذ سائق"الميكروباص" حزمة من المطبات التى تغرق الشارع عشوائى المنازل والغير ممهد الطريق. وتتراشق رؤوسنا بالسقف،ولم يعبئ بصرخاتنا وتأوهاتنا ليزيدنا آلاماً فوق ألامنا. فأتسائل بنفس مكبوته. مالذى يدفعنا للصمت؟. أنظر نحو الوجوه لعلها تجيبنى. فلم أجد من يحادثنى. و كيف لهم أن يجيبوا والسؤال لم يغادر أضلعى؟!. فى تلك اللحظة، كنا قد إقتربنا من

نهاية الشارع الطويل عائدين تلك المسافة التى قطعناها من الشارع العمومى ولكن من المنطقة العشوائية الموازية له. ألتفت إثرى لأنظر من الزجاج الخلفى. فأرمق"مالك السيارة الحديثة" يعدو على قدميه، وبأنفاس تكاد تلاحق نفسها، يحاول أن يلحق بنا، فُيسحل فى الأرض حين يتعرقل بأحجار الطريق. ويثبت الراكبين أنظارهم إليه فى صمت، فيبدو على بعضهم حاله من التأثر لحاله، والغيظ المكتوم من السائق، ولكن الكل فى إنتظارأن يبدأ غيره. ويلوح لى كنقطة صغيرة فى بحر من الحقوق الضائعه تحاول التعلق بقشة من الإنصاف. ينعطف السائق يميناً تاركاً الشارع الطويل ذا المطبات، وتمنيت لو يساعده أحد بالعدو خلفنا فيدله على طريق سيرنا أو يمسك بنا. فى تلك اللحظة إتخذ السائق منحنيات مختلفة ليُعسر عليه الأمر. لحظتها أدركت يقيناً إستحاله إمساكه بنا. حتى السائرين أصابهم حاله من التبلد،ولم يساعدوه. يلتزم الجميع الإستكانة والرضوخ وكأن شيئاً لم يحدث. وينشغل كلً بفعله، فيداعب "الموبايل" من يداعب، ويقرأ من يقرأ وتره الصباحى بعد أن أطفأ المسجل. أشعر بنار كيها يلهب كامل جسدى، ولم تغادر ملامحه مخيلتى، وكذلك وجه المملوء ببركان الحسرة كاد ينفجر بداخلى. الأن أدرك أن فى صمتى مشاركه فيما حدث. وتصيبنى حاله من السأم ممن حولى. فأصرخ بإرادة، فيترأى لى صوتى

أقرب بمامأه. أصرخ أكثر، ويتعالى صوتى حتى أنقطع عن ركبهم. فيصيبهم الإستغراب، لانهم لم يستفيقوا بعد من غفوتهم وتبلدهم الحيوانى. فأهتف :-

- أقف ياأسطى..أقـــــــــــــــف.

فيحادثنى السائق بلهجة حادة وكأنه لم يفعل شئ يستحق الصراخ والإعتراض، فأبارزه بحدة تفوق لهجته، ويحتد الحديث بيننا. فيتوقف. وبدأ ينفى التهمة عن نفسه ملقياً بها على "مالك السيارة الحديثة"، لانه رأه يعود للخلف ولم يتوقف. ويشاطره نفس الرأى الجالس بجانبه، وكذلك "عجوز المحطة". ويتعاطف معه بعض الراكبين كخيط يبرر لهم التغاضى عما حدث ونسيانه. ويصمت الأخرين. لم أقتنع بما قيل، مستغرباً تبريراتهم العميانية. وأدركت بأنهم أنفسهم سبب تلك الحالة الغوغائية التى أخطرنى" بها العجوز" حين بدأ بيننا الحديث. وقررت – كما قرأت قديماً– ألا أسير مع القطيع وألا أصمت على تعسف الرعاه. فسرعان ما أطلب أجرتى. أتفحص الراكبين، فيتبين لى إستكانتهم، وإنصياعهم لما قاله السائق بأسلوبه الناعم الماكر. فأتسائل متعجباً كيف لهم أن يستجيبوا لما قيل ؟!، وقد شاهدو تطور شخصيته. أشعر بأننى مجنون يستحق العلاج وأن ما أقوله هو الشاذ عن القاعدة. وكأن

ماحدث- ورأوه بأعينهم- من نسج خيالِ. بل وزاد إحساسِ بزى الامراض العقلية يلقى حول جسدى دون إرادة منى. أُصرعلى إستعادة الأجرة والمغادرة غاضباً ومهللً حتى أنزع عن نفسى رداء الجنون الذى حاولوا تفصيله لى. أأخذ أجرتى. وأغادرفى هدوء. ناظراً بتقزز إلى الجالسين- فى نظرى- كالمقاعد.محاولاً إثارتذرة ضمير متيقظة بداخلهم. ولكن بلا جدوى. حين أطأ أرض الطريق، كان الواحد تلو الأخر يتبعنى وكأن فى مغادرة كل واحد منا تعرية للأخر، وإيقاظاً له. وكأن فيرس من التعاطف أصابهم فإندفعوا جميعاًإلى خارج" الميكروباص"، ومطالبين فى حدة بأجرتهم كاملة. وطفقوا يسترون أنفسهم بأوراق كلمة الحق. وينفضوا عن أنفسهم غبار السكوت. ولم يكن أمام السائق سوى أن يرضخ لمطلبنا. فإبتعدنا جماعة واحدة، عائدين نحو الموقف، تاركين السائق وحده، مكتفيين بما فعلنا، راضيين النفس، ناقمين للصمت.

لحظتها كانت السيارات تتراص إثر بعضها فى إنتظار من يركبها، فركبنا، ولم نشغل أنفسنا بعواقب التأخير. لأن فيما فعلناه تقدم. وتأبطنى "عجوز المحطة"حين جلس جانبى وتسائل:-

- ألازلنا قطيع؟.

أستغرب سؤاله، ربما فى خضم إنفعالاتى الداخلية طفرت تلك الكلمة. فتأثر بها. لذا أجيب:-

- نعم.. ولكن قطيع من العقول المتحررة

يبتسم ثم يتحدث بتفاؤل:-

- الأن أدركت ماوراء صمتك.

"تمت"

"عن ٢٠ عاماً عمر علاقتنا"

إستيقظ من غفوتة، وتسائل فى لهجة من يعرف الإجابة:

- آلم يسأل أحد عنى اليوم؟.!

إعتصرنى الحزن وأومات بالنفى. وإستسلم هو لغليان داخلى قد بدا فى عيناة التى لم يستطع لجم قطراتها التى سبحت دون قدرة منة على الإمساك بها، وإختلطت ببحر الوسادة. وراح يتفحص الغرفة وكأنه يراها لأول مرة. فالغرفة ليست كالتى يعرفها، والمقاعد الوثيرة والمكتب الكبير الذى لم يعهد سواه بالتمنى والجلوس طيلة ٢٠ عاماً هى عمر علاقتنا قد تلاشوا وحل محلهم فراش بملاءه مبهجة ودولاب وتسريحة وأنا..!

صوب إلىِ تلك النظرة شأنى فى ذلك شأن ماحولى من أثاث.

إنتابتنى لحظة غضب لاشعوريه دفنتها مع مادفنت فى أعماقى، وبدا أثارها فى إحمرار وجنتيى ومداعبتى بعنف لدبلة قد أحاطت بنصر يدى اليسرى لم أدرك لذة وجودها حتى فى لحظاتنا

الحميمية. وصوبت نظري تجاة الصور التى تحوى بين إطاراتها أجمل لحظاتنا النادرة على مدار ٢٠ عاماً مضت هى عمر علاقتنا، وتناسيتُ فى صحبتها سؤالة المتكررالذى يعرف إجابته دائماُ ووقع نظرته المستغربة وملامح الشباب التى همت بالرحيل وبقى آثارها فى الصور.

لم يعبأ بما طرأ على وجهى، وجال ببصره فى الغرفة باحثاُ عن قشة يتعلق بها لتعيده إلى ذكرى أيام بهائه ومجده وتنسيه ركدة الفراش. فلمح لافتة صغيرة توضع على ترابيزة ليست ببعيدة عن الفراش قد أهم بإمساكها. فأعاقتة "الكانيولا" التى توخز يدة. وإنتفضت من مقعدى كالملدوغة حين تأوة، وإتجهت نحو فراشه لأخفف من آلامه، وربت على يده ورأسة بفيض من الشوق والهوى الذى لم أحظى به إلا شذراً طيلة ٢٠ عاماً. وتحسر على أيام كانت تنخلع فيها القلوب حين يُسمع وقع أقدامه بالعمل، وحين يخط بالقلم أرض الورقة فتتحول إلى شئ ذو قيمة. وإختلطت الأفكار بداخلة وإفتر ثغره عن همهمات متتالية أخرجتنى من لحظاتى الحالمة فى حضرته، وأبحرتنى فيما يكنه من مشاعر شتى تعتصره. فأراه تارة يبتسم وهو يحدثنى عن سلطتة وسطوتة حين يتكأ على مكتبة المعشوق الأول لديه. وحين تكتظ غرفة مكتبة بأصحاب المطالب من الموظفين والأقارب والمعارف طلباً

لخدماته وإتصالاته ومساعداته لهم، وحين تتكاثر عليه إتصالات المسئولين من أصحاب المناصب العليا فى العمل وخارجه. وهيهات مايعكر صفو إبتسامته حين تداهمه ذكرى سقوطه مغشياً علية إثر إقالته من منصبه. وتتكدر ملامحه حين ينظر حوله فيرى نفسه طريح الفراش. يميل برأسة تجاة الشرفة يمين الفراش، وقد غلفت خلفيتها قطع من الليل، وإستسلمت نوافذها لأحضان الهواء الذى يضربها بعنف وجنون ممتع دائماً ماكان يغلفنا فى أيام ولت. عرفته فيها ملئ بالطموح لا يعرف اليأس والعيش على ذكرى أيام مضت، وأحببت إعتداله كالهواء الذي لاينقلب إلى ريح تدمر كل شئ حتى نفسه، وأحببت إنسانيته حين يعاملنى كملكة فى بيتى، وحين يداعبنى بأرق الكلمات التى تنعش العزيمة. تبدل الحال، فأصبح يقضى يومة كاملاً فى العمل لايغادره إلا للنوم، حتى ميعاد تجمعنا للغداء حين تدق ساعة الجدار فى وقت محدد تناساه. فكان حقاً عليه أن ينظر للمكان بإستغراب حين أفاق من غفوته، وكان حقاً علىِ أن ألتمس من صور لحظاتنا الجميلة والنادرة قبس يعيدنى لأيام كانت بهائى ومتعتى. أفاقنى من بحر مشاعرى المتدفقة وأشار إلى اللافتة التى لم ينس أمرها. وحين أمست بين يديه صوب إليها نظرة حنين وحسرة، وتراءى لة المحفور عليها –" ع . ب المدير العام" – لامعاً تحت الضوء

المنبعث من أباجورة جانب الفراش. وضم اللافتة إلى صدره وتناسى كل شئ فى حضرتها. وإستسلم لغفوة أخرى. وتوالت الأيام بين إستيقاظه وغفواته، ومنيتُ نفسى بأن أخط سطر فى أقاصيص الماضى التى يعود بها من غفواته. ولكنه آثر أن أبقى مستمعه لما يرويه فلم يزل يحكى ويتذكر ويتسائل في يأس:

- آلم يسأل عنى أحداً اليوم؟.!

وتناسيت ماكنت أتمناه وتركت أمرى للأيام هكذا حال العاشقين ينتظرون حتى إنقضاء العمر. داومت على أعمالى اليومية. أعد الطعام مع دقة ساعة الجدار الرابعة عصراً، أنظف المنزل وأفرشة بأزهى الألوان التى تبهج النفس. وأجدد جوانبه بأزهار تنبض بالروح، وأزين نفسى بأرق الملابس، وأتفحص بريد القراء لأشغل نفسى بقصص الموجوعين وأفراحهم وأطراحهم، وأدعو نسائم الهواء تتماوج من بين نوافذ الشرفات. ولم يخلُ ذلك من إضفاء حالة من الإنتعاش بموسيقى تصارع حالة الصمت والركود بالمكان. ويتماثل هو للشفاء تدريجياً ولم يشف بعد من أيامة الماضية وذكرى مكتبة الأثير ولافتتة المحفور عليها أسمه ومنصبه. وجلست على مقعدى الهزاز وأمسكت بالقلم لأخط أخر كلمة وقد أدركت بعد أن تبدد العمر وبهتت الملامح وتهدمت معالم الأنوثة أنة ليس بالإمكان أن

أمحى ٢٠ عاماً عمر علاقتنا لم أعيش فيها إلا لحظات نادرة كتلك التى فى الصور التى تعلق على الجدار.

"ن.ح"

طويت الجريدة بعد الإنتهاء من قراءتها ، تملكنى الصمت والذهول، وأحسست بفيضان من الماء البارد إنسكب على رأسى حين تذكرت إنة قد مر ٢٠ عاماً هى عمر علاقتنا وأنا معصوب العينين ضيق النظرة. وترك كل معنى تقصدة وخطتة برسالتها – ولم أستطع فهمة من نظراتها ولمساتها– جرح عميق لن يضمد إلا بعفوها. ولمع بذهنى يوم أن قابلتها فى حفل زفاف جمعنا صدفة ، وتذكرت أول حديث دار بيننا، وإفتر ثغرى حين تذكرت إبتسامتها الصافية والفرحة الصادقة التى إنتابتها ، وإعتصرنى الحزن حين نظرت إلى الصور التى رصت على الجدار كلوحة فنية كانت ملاذها حين يضيق عليها صدرى . حتى بريد القراء الذى أوضعتهُ مشاعرها وعلاقتنا كنت أتلاشاه حين أمضى فى تفحص الجريدة. ماكنت أمقتة ذات يوم أفعله الأن.أسندت ظهرى إلى مقعدها الهزاز مفكراً. وتركت العنان لبصرى الذى تجول فى الغرفة، فلاحظت أن الملائة لم تتغير وقد كلح لونها، والورود بالفازات قد ذبلت، وحتى ساعة الجدار لم تدق كالمعتاد، ولم

يحضر الطعام فى ميعاده . تفاصيل كانت تزين ٢٠ عاماً لم أعبأ بها، اليوم أستولت كامل عقلى، وزاد من إعيائى الفراغ الذى حاوطنى وتكاثرت الأحزان حين تذكرت فى شئ من اللوم لنفسى والعزاء لنفسها يوم أن تناست أن تصبح أم من أجل رجل–عقيم– عشقته فلم يعشق إلا نفسه، وظن بعشقها له إنه ملكها، فأدرك برحيلها إنها من تملكه. وتكاثرت أسباب التأنيب فى وحشة الليل وصمت المكان حين تذكرت سؤالى الدائم عما لا يستحق سؤالى ونسيت من كان يستمع حين لا يكف لسانى بالحديث عن أيام العمل وإنتصاراتى وكبواتى. وإستطاعت هى أن تخط كلماتها وملاحم أحاسيسها وماتضمره برسالة قرأها كل الناس وقرأتها أنا..! بعد فوات الأوان فكان علىِ نشر إعتذار واجب فكتبت هذا الإعتذار..

"ع . ب " فقط

"تمت"

"العصفور والقفص"

هل الصباح، وتعرى المكان أمام أضواءه. وأقبل الموظفون يشقون الطرقات نحو المكاتب. وبدأت الثرثرة اليوميه، وتناقلت أصداء الأمس بين الأفواه مع تلوك وجبات الإفطار. وتحرك ساعى البوفيه بصينيه الشاى والقهوة ليعطى كل ذو طلب مطلبه. وتبادلت أوراق العمل مع إلقاء كلمات الغزل للموظفات فى دعابة، وترطيباً للوقت وترويحاً للنفس، وإختلطت الأصوات مع تكتكة أزره الكمبيوتر مع بعض الضحكات المتناثرة فى مهرجان الضوضاء. ودوى رنين الهواتف الداخليه بالإداره على فترات. فتحدث هواه الرغى فيما يهم ولايهم. وإنشغل أرباب الجمعيات فى تحصيل الأموال. وحان أذان الظهر، فخلت الإداره من بعض الموظفين لأداء الصلاة فى جماعة. وإتجه البعض إلى التأمين فى رحله البحث عن العلاج. ومكث القليل على مكاتبهم. وتحرك الساعى بفوج جديد من الشاى والقهوه. فوضع على مكتب الأستاذ قدح من الشاى الساده. فلم يتحرك ساكناً، ولم يعبأ بما وضعه الساعى. هكذا حاله منذ أيام. تغلفه حاله من الصمت والتفكير العميق.

يتناول إفطاره وحده فى هدوء غير معهود. شارد الذهن، مشغول البال، يقضم أظافرة فى توتر بإنتظار شئ ما. بدأ يداعب بقلمه نتيجه مكتبه المثلثيه، وراح يكتب أشياء عليها كعادته الدائمه فى تسجيل المناسبات والمواعيد. وبدأ يكشط أشياء أخرى وسط نظرات مختلسه من الزملاء الجالسين بالإدارة. إنتهت الصلاه، وأقدم باقى الموظفين إلى الإدارة ، وعلت أصوات بعضهم بالتهنئه لإحدى الزميلات بمناسبه يوم ميلادها. فإندفعوا إليها تباعاً مهنئين ومقبلين. وأعطى البعض إليها الحلوى إحتفاءً بها. ولم يتحرك ساكناً ،ولم ينبس بشفه. فأثار صمته إستغراب الزملاء. فبدأوا بالحديث إليه فى شئ من العشم بإلقاء النكات والسخريه بدعابه مألوفه لديهم. فإبتسم ببهتان مع بعض الكلمات الشحيحه التى لاتسمن ولا تغنى من جوع. وتحاشى النظر إليهم بالنظر إلى المطلق. وراح يداعب نتيجه مكتبه المثلثيه تاره والنظر إلى هاتف مكتبه تاره أخرى. ولم يعى النظرات المتسائله أى إهتمام يذكر. فملئت الدهشه الوجوة، وزكم التطفل الأنوف، وثارت التساؤلات متعجبه. مالذى حدث؟!. مالذى طرأ عليه حتى يلازمه الصمت فيسجيب له فى خنوع؟!. فهو الذى لم ينس قط تهنئه أى زميل_ممن بقى فى الخدمة وحتى ممن رحل عن العمل ولم يرحل عن عالمنا– بيوم ميلاده. فكان مذكراً لنا وإن نسينا . كيف

تتلاشى روح البهجه والدعابه بجسده ليحل محلها رياح التوتر والجمود والكآبه؟!. دوى رنين هاتف مكتبه، فإلتقط سماعته فى سرعه كالمغناطيس. وتحدث بصوت خافت لم يتبين الجالس جانبه مايتفوه به. فأغلق السماعه. وإنطلق مبتعداً عن الإداره وسط نظرات الزملاء وتساؤلاتهم. فإنطلقت النميمه كالسيل. وأقبلوا على بعضهم يتسائلون، وتطوع من يريد التقصى وإكتشاف السر للعبث فى نتيجته، فتلاحظ لهم دائره حول يوم ميلاده، وحساب عن سن المعاش، وأرقام لايفهمونها. فحاولوا تأويل ماقرأوه ورأوه فلم يتوصلوا لشئ. وقرروا فى فم واحد سؤاله فى جرأه، ليس تطفل بقدر ماهو خوف على زميل عمر. فجلسوا ينتظرون مجيئه. قبل ميعاد الإنصراف بوقت قليل. وطأت قدماه المكان ، ترتسم على ملامحه الجديه مع بعض مسحات من الرضا. وبدأ فى إفراغ مكتبه. وتنازل إلى الزميل الذى يليه فى المرتبه عن بعض الملفات المسنده إليه. وسط ذهول ونظرات الزملاء المتوجسه. فتحدث ليقضى على ما أصابهم من الحيره:-

- لقد تقدمت بإستقالتى.. واليوم تم قبولها.

فحملقت العيون، وإنطلق حديثه كالسهم فأصمهم، وعقدت ألسنتهم عن الحديث لبعض الوقت ثم إنقضت الاسئله تفترسه دون رحمه:-

- لم؟!. فالترقيه على الأبواب، وكنت أبرز المرشحين لترأس الإدارة.

أجاب بفتور ولا مبالاة:-

- نصيب.

وبدا كأنه مشغول بإنهاء ماليه من عمل متكدس وكأنه يسارع الوقت، وتحدث آخر فى محاولة جادة لإثناءه عما أقدم عليه:-

- سنه حتى سن المعاش ليست بالهينة فى تحصيل الاموال والمكافأة.

- إبنى.

قالها دون أن يتوقف عن إفراغ مكتبه. وحام التساؤل فى وجوه تعلوها الرغبة فى المعرفة:-

- وهل أصابه مكروه؟.

- أريد أن أضمن له مستقبله وأطمئن عليه.

- ليس هناك تعارض، فإمكانك أن تؤمن مستقبله وتبقى بالعمل.

- كفانى مامر من العمر. فأنا أريد الراحه.

- يُهيئ لك ذلك . فالعمل خير متنفس لنا.

تحدث فى هدوء وزهد وهو ينظر إلى الزميل المتحدث :-

- حسبى الصلاة والتقرب لله خير متنفس.

وتساءل آخر ممن إلتفوا حوله :-

- وهل وافق المسئولين بسهوله؟.!

- وإتفقنا على إنجاز كل شئ، أوراق تعيين إبنى وأوراق إستقالتى ومالدى من عهد ومالدى من مستحقات.

فى حزن يتحدث أحد الزملاء:-

- إنك تتعجل الاحداث وكأنك تريد الفراق.

- بل أريد الراحه.

فهتف أحد الزملاء وعلى وجهه إبتسامه باهتة تنطوى على حزن دفين:-

- إذن فلنحتفل بك إحتفال يليق بخير من يؤلمنا فراقه.

وشاطرة أخر الرأى:-

- وليكن فى يوم ميلاده الذى دنا وإقترب.

إنفض الجميع عن مجلسه ، يجمعون الأموال من بعضهم البعض إستعداداً للإحتفال به. بينما حاوطه أقرب الأصدقاء يحاولون مراجعته عن قراره. فأبى الحديث فى أمر الإستقاله بالإنغماس فى إنهاء علاقته بكم الأوراق والملفات المتكدسه بمكتبه. فتحدث أحد الزملاء إليه فى دعابه ممزوجة بأسى:

- لاندرى أنهنئك بيوم ميلادك أم نواسيك لبلوغ المعاش؟.

يبتسم ثم يتحدث بلهجه فلسفيه ذات صبغه صوفيه طغت عليه بأيامه الاخيرة:-

- لايهم.. المؤكد أننا نقترب من الموت.

تلاشينا وقع ماقاله بالإندماج فى إعداد حفل المعاش. وأسرع هو فى إنجاز أوراقه، ومر الوقت فى رشاقه. واختفى عن الإداره، وصرنا نطمئن عليه بالتليفون، ونعد العده للإحتفال به، وتم شراء هديه تليق به وبسنين صحبته بالعمل، وكم المجاملات التى دفعها خلال فتره عمله، وسجلت فى أوراقنا وحان ميعاد السداد. وعلقت الزينه على الجدار، ونقش أسمه بألوانها المختلفه، وتزين المكان إستعداداً ليوم الإحتفال.

فى تلك الليله التى سبقت يوم الإحتفال. كنا نشاهد التلفاز بعد عناء إنهاء أوراق تعييني وأوراق إستقالته. رآيت إبتسامة ترتسم وجهه وكأنها تنبعث من راحه عميقه وإطمئنان تام مستقبلي. ولا أخفى الخوف الذى إنتابنى. حين غادر مقعدة، وبدا يعدو بسرعة داخل الشقة فى الطرقه الطويله – التى تربط الصاله بالغرف الداخليه – وكأنه ورقه تطير فى مهب الريح. وبدأ يتجرد من ملابسه القطعه تلو الأخرى – خلال رحله العدو – وأنا خلفه

مشدوهاً أحاول اللحاق به، حتى وصل إلى الفراش كيوم ولدته أمه. دثرته بالغطاء، ولاحت فى عيناه رغبه فى النوم. فإنسل جفناه ونام. تحسست الهواء المتسرب من أنفه لأقضى على حاله الذعرالتى غمرتنى. فأطمئننت. وغلبنى النوم.

هل يوم الإحتفال، وكان المدعوون من الزملاء يفوق التوقعات. فحل بالإدارة كل من وطأت ساقه المكان فى وقت مضى ورحل عن العمل. فجاء ليرد جميل من لم ينساهم أبداً بالتهنئه فى أعياد ميلادهم. ورصت الحلوى "والتورته" على المكاتب التى لاصقت بعضها البعض. وتزين الزميلات لإلتقاط صور – فى صحبته– للذكرى. وأنتظرنا مجيئه، وطال الوقت، وقل الصبر على الإنتظار. ودوى رنين الهاتف. فهبط خبر وفاته بالصمت المطبق على الوجوه. فتحول الفرح لطرح، وتحول المحتفلين لمشيعين. فقد آثر الإنسحاب فى هدوء كأيامه الأخيرة.

آب الحديث المتبادل بين الزميل العجوز وإبن الأستاذ. وتحرك ساعى البوفية بصينيه الشاى والقهوة، فوضع قدح القهوة أمام الزميل العجوز والشاى الساده أمام إبن الأستاذ. وأكمل العجوز بعدما إرتشف من القدح أمامه:–

- رحم الله أباك أحس بدنو الأجل، فأمن مستقبلك. الوظيفة كنز.

- بل قل إن شئت قيدنى بقفص مصمت بلا نوافذ ولا أفكار وطلب منِ العيش.

يستغرب العجوز، ويتعقد حاجبيه مستفهماً، فيردف الإبن:-

- أنظر حولك وسترى صدق م أقول.

نظر العجوز حوله، فترآى له كلمات الغزل تلقى للموظفات الصغار والكبار ترطيباً للوقت وترويحاً للنفس، الثرثره فى أوج نشاطها، وتحولت تكتكه أزره الكمبيوتر من كتابه المذكرات لكتابه الشات. وتحولت شاشات الكمبيوتر لصالات عرض لأحدث الأفلام السينمائيه، وتوارى بعض الزملاء عن الأعين خلف إحدى الشاشات لمشاهدة أفلام جنسيه مضيعه للوقت الطويل وندره الأعمال المسنده إليهم. فحملقت عيونهم فى تركيزمع من هب ودب فى الإداره ولم تسلم إحدى زميلات المكتب التى تتمطع بعفويه فيبرز نهديها رشيقاً كالشباب من نظراتهم. بينما كبار الموظفين ينكبون على العمل المتكدس لديهم. تغاضى العجوز

عن ما رأى بالإرتشاف من قدح القهوة ثم تحدث إلى إبن الأستاذ:-

- حاول أن تأقلم نفسك، وتعيش كما عشنا، وصم أذنك وأغلق عيناك عما لايعجبك وأنظر إلى طوابير المنتظريين أمام أبواب المؤسسه أملاً فيما أنت فيه من نعمه. فلا تجعل شطحات الشباب تقتلك. وأعلم أن فى الميرى خير من ألف شئ.. هكذا المثل.

- سوف أتبع نصيحتك، وأتأقلم مع المكان بطريقتى.

- كيف؟.!

- سأكتب القصه، وسأسعى للنشر وحينها سأحلق كما أشاء.

يفرد إبن الأستاذ ذراعيه فى الهواء، ويرتشف العجوز آخر رشفه من قدحه ثم ينظر إليه بنظره فيها من الحسرة والتعزية ليس لرحيل صديقه وأستاذة بالعمل ولكن لفقدان إبن الأستاذ عقله. ترك العجوز مقعده، وصافحه معزياً:-

- البقاء لله.

"تمت"

"نظرية اليأس"

حين جلست إلى مقعدى داخل المقهى. جلس جانبى – على نفس الترابيزة – دون إشاره منى. وقد بدا فى عيناه الذبول، وعلى وجهه يتفصد التعب وثقل الحمل، فى هيئته المهندمة مايدفعك للتقرب إليه والتعرف على مافى جعبته فى نفس الوقت الذى تتملكك ناحيته حاله من العطف والرثاء . فنظرت إليه مستفهماً. فجابهنى بحديثه الغريب:

–بعد غد حفل زفافها، وأريد أن أحضره.

قالها وإنخرط فى الحديث بحاله من التأمل والفلسفه وكأننا أصحاب العهد القديم. وإستسلمت كرجل يهوى المغامرات فإستمعت مستغرباً.

"ما الذى يدفعنا للحنين للماضى؟! .هل لما نقابله من مآسٍ فى الحاضر والعالم من حولنا. ربما. فمنذ أن قررت بمنطق الأحداث والظروف أن تنقطع علاقتنا إلى الأبد. وأنا كما كنت من عام مضى، مشتتاً بين دهاليز الحياة وصعودها وهبوطها بلا تقدم ولا

إراده ولارغبه فى شئ سوى فكرة الإنتحار التى تدق رأسى وبشدة. فمن عاطل ملل طول الركدة إلى مندوب مبيعات سئم المحايلة والإقناع إلى سائق يجوب الشوارع بحثاً عن ذبون فلا أجد سوى طرقات تفوح منها رائحة الذكرى. فتسكرنى وتعزينى عن واقعى، وتؤلمنى على عمر مضى دون جديد سوى فقدانها. لقد سئمت الحياة والظروف وقله الحيلة والمال التى كانت سبباً فى ضياعها. فرغم تعلقها بى وحباً لها قررت البعد طوعاً لضيق المسالك. لحظتها كنت أدرك أنة ربما فى البحث وحدى قدرة على تحقيق الذات ثم الوصول إليها، فأنتزعها. إنسجمت فى القيادة وأخذتنى الحياة ولم يقض على الذكرى البعد. بل عاشت وترعرعت بداخلى فى وحشه الليل والفراغ والوحدة. فأمسيت دائم السير فى نفس الأماكن التى كانت فى صحبتها. وجوبت نفس الطرقات وحدى. وطرقت باب السينما المفضلة لدينا دونها. وجلست على السور الحديدي الصغير بميدان طلعت حرب كما كنا نجلس فى عهد مضى نستمع إلى أغانٍ هاتفها التى أنعشت قلوبنا. وكان التمثال أمامنا يباركنا منتشياً. فتمرق سيارة لتخرق تفكيرى فى جو الليل الموحش بالوحده والغربه فى وطن نشتاق إليه كحبيب غائب. وتنطلق من داخلها أغنية " وحدى لكن ونسان وماشى كدة ببتعد ماعرفش أو بقترب" لتضفى على المشهد موسيقى تصويريه

تصيبنى بالقشعريرة والحسرة وتضعنى فى عمق الواقع فأجد نفسى كالأمس بلاجديد. فأرمق التمثال فأراه وكأنه يشير ناحيتى أسفاً، لا أعلم هل على ما أتخذته من قرار أم على حالى الذى وصلت إليه؟. أكملت كتاب الحنين بإحكام سوستة الجاكت حتى الرقبة. تحركت كعادتى ناحيه منزلها الذى أمسى كطقس يومى لا أستطيع التخلص منه. وتمنيت أن أراها تطل كما كانت تفعل بالأمس فى ذلك الوقت حين كنت أفارقها عند المنزل. فتصعد وتشعل نور غرفتها، وتودعنى من نافذة شرفتها. ولكن كل ذلك ولى. اليوم رأيت الأنوار تملأ الشارع، تعبر من شرفتها إلى شرف العمائر المقابله والمجاورة. لتعلم الجيران والسابلين بالحفل المنتظر. وتخطر العاشقين أمثالى بقتل الذكرى للأبد. وبنفس المنطق الذى إتخذته بإنهاء العلاقة. قررت بلا منطقية أن أذهب لحفل زفافها. لا أعرف ماهو السبب الذى دفعنى لأتخاذ هذا القرار. ربما رؤيتها أخيراً بعد طول إنقطاع. وربما ترمقنى فتوخزها الذكرى، فترمينى بشئ أدرك به قدر مكانتى بقلبها. وربما أجد جفاء يدفعنى لنسيانها أبداً. وربما لأتجرع من صورتها في عرسها مايدفعني للسقوط والهلاك. حقاً لا أعرف سببا واضحاً. فأنا لا أريد العودة لأن مصيرى محكوم بالرفض، ورجوعى ضياع للوقت وإثارة للمشاكل. كما أننى لا أريد أن أفسد عليها حياتها. ولكن أريد أن أراها

بفستانها الذى تمنت أن ترتديه بجانبى. بعد غد حفل زفافها. ستغادر منزلها وتخلع حياتها الماضية، وترتدى ثوب الحياة الجديدة. ولكن الخوف فى أن أبقى كمجنون، فأستمر فى الذهاب إلى منزلها بعد أن تغادره لمنزل آخر. ولا أخفى عليك أن بداخلى – وأنا أحدثك – رغبة ملحة تدفعنى لزيارتها فى منزلها وتهنئتها، ولكن لا أعرف كيف؟. بعد كل ذلك أتسأل كما تتساءل لما أفعل كل ذلك؟!. فلا أجد سوي أن فى الحنين ياعزيزي شئ من المتعة، وفى الماضى لذة وعزاء لايدركه إلا المنكسرين فى حاضرهم. هكذا أنا حاله من التخبط، حالة من اليأس والوحدة واللا منطقية. حالة من الأمل فى الموت على بساط الحنين والذكرى."

صمت. أرخى ظهره إلى الخلف مستنداً إلى ظهر مقعده. فهممت بالتحدث إليه إعتماداً على طريقته فى الحديث معى كأصحاب قدامى. فبدأت بالإثناء على عقله وقراره الصائب بإنهاء العلاقه بعد أن إقتنع بصعوبة الإستمرار. وحاولت نصيحته بعدم الذهاب لزفافها حتى لايظهر أمامها بمظهر المنكسر. وتأكيداً على كلمته بعدم رغبته فى إفساد فرحتها، وإقناعاً له بأن ليس براحة – كما يتخيل– أن يراها. فبدا فى عيناه سرح، لم يعى ما أقول وكأن بداخله صراع لم أتبينه. فإنتزع نفسه بحركة فجائيه وقال بلا مبالاه:

-لا أريد النصيحة.. فأنا أحتاج لأن أقص وأحكى فقط.

ثم غادر المقهى بنفس أسلوب فرضه الفجائى على مجلسى. فتبعته وأنا مملوء بالدهشه. بحثت عنه بالشوارع الحيطه بالمكان، فلمحته بعمق الشارع المجاور للمقهى، يتحدث إلى رجل أربعينى، فإقتربت لأستمع، فسأله الرجل:-

- أين شارع عدلى؟.

يقف تائهاً، يحاول عصر عقله، ثم تحدث فى لهجه يقينية:-

-إتجه يميناً ثم أكمل الشارع حتى أخره. وإنعطف يساراً (يصمت).. لا.. لا.. لا.. من الممكن أن تسير بالشارع حتى أخره.. و.. و..

بدا مشوش الفكر ومتوتراً ثم فى لهجه عصبيه تحدث:-

لا أعرف.. لا أعرف.

يبتعد تاركاً الرجل وحده مندهشا ومترفقاً لحاله. تحركت وراءه فى الطريق، فأراه يتفحص العمائر العتيقه بوسط البلد بهيام. يصل إلى ميدان طلعت حرب فى ساعة متأخرة من الليل، الميدان خالى

إلا من قليل. وبرودة الشتاء تغلف المكان، فيحكم "الجاكت" حول جسده بشده ثم ينظر بتيهه ويأس إلى الشوارع المتفرعه التى تصب فى الميدان ثم يخطو ببطء نحو التمثال، فيجلس عند قدميه فى هدوء ولامبالاه.

"تمت"

"صمت الخريف"

(1)

أغلق الهاتف بعد أن تحدث لإبنه. وأطمئن على إبنته بعد أن ألقمته تحيه صباحيه عبر برنامجها الإذاعى. هكذا تعود. وهكذا صارت حياتهما بعد زواجهما.

ترك غرفته، وإتجه نحو شرفة "الريسبشن"، متعكزً على عصاه، ومستجيباً لنداء عصفور يقف عند شرفته. بينما لايزال" الراديو" شادياً بأغنية "ياصباح الخير ياللى معانا"، تلك التى أهدتها له إبنته فى ذلك الوقت من الصباح. فإستمع إليها بحاله من الهيام وكأنه يستحضر ماضى جميل. وحين أطل من الشرفة، كانت قد تبدلت الأغنية القديمة بأغنية شبابية لم تكن فى نظرة إلا كالوجبات السريعة التى لاتسمن ولا تغنى من جوع . فتلاشى سماعها حتى أمست له كهمهمة غير مفهومة. وترأى له الخضرة الإصطناعية التى تغطى مساحات واسعة من "الكمبوند" الذى يقطنه. فلم تمر دقائق حتى أحس بحاله من عدم الإرتياحية. أغلق على إثرها الشرفة،. وإستسلم لمشاهدة مايعرضه تلفاز ماركة

"سامسونج "بلازما ٤٧ بوصة، يوضوع أمامه. فلم يجده سوى ماركت كبير مملوء بإعلان عن منتجات، ومنتجعات سياحيه وأماكن سكنية بازخة الترف. داعبت يده "الريموت كنترول"، فتتابعت القنوات لتعرض نفس الأشياء. إستمر بالتبديل باحثاً عن شئ بعينه وكأنه يحاول إعادة الحياة إلى الجسد مسلوب الروح. توقف عند قناة تعرض فيلم "لعلى الكسار"، فإبتسم بهدوء وصفاء، وإسترخى كسمكة عادت إلى بيئتها بعد غياب. فإستسلم للمشاهدة، وكابد رغبة داخلية لا إرادية، تحاول إرغامه على الإمساك" بالموبايل" الخاص به بلا هدف. إستطاع- أخيراً- أن يتغلب على تلك العادة التى إكتسبها منذ أول "موبايل" إقتناه، وحتى ذلك "الموبايل" الملقى جانبه ماركة"أى فون ٦". مر بعض الوقت. وإنقطع الفيلم للإعلان الذى طال. فأغلق التلفاز بعد أن أصابته حالة من الملل. وإتجه نحو راديو من طراز قديم. فحمله من مكانه، وإتجه به صوب مقعديقبع فى صدر ترابيزة السفرة. وداعب مؤشره باحثاً عن موجه بعينها، وهو يعلم يقيناً أنه لا يعمل. فإستسلم لخياله، وإستند إلى ظهر المقعد، وبدا عليه حالة من الترنم وكأنة يسمع شئ ما قادماً من بعيد. فإستنشق نفس هائل من هواء الصباح. وأغمض عيناه مستسلماً لما راوده، فصار فى رحابه، متأبطاً له.

(2)

وطأ شقة أخرى متواضعة. كان يقطنها فى بداية حياته. فأصابته حالة من القشعريرة لرؤيتها.وقف متسمراً فى مكانه بينما صالت عيناه لتتفحص ما حوله. فإستسلم لما ينهال عليه من كراكيب مشاهد متناثرة، وقصاقيص أحداث ولت، أقبلت مع خطواته كغيث فسُقى، وترعرعت نبتته التى كاد يصيبها الذبول والموت. وإنتعش جسده، وحلقت روحه فى عالم المكان. فأحس بأنه ليس فى حاجة إلى عصاه. فتركها جانباً. وإتجة نحو الرف الخالى- جانب ترابيزة السفرة التى تتوسط الصالة- فوضع الراديو ذو الطراز القديم بمكانه القديم. ونزع ماتتوارى به ترابيزة السفرة من قماش. فتعرت مفاتنها، وزكمه التراب محملاً بأحداث الماضى البعيد. فأحس بتحرك مؤشر الراديو الذى وضعه، وكأن الروح دبت فيه من جديد. فإلتفت إليه بحركة فجائيةكممثل على خشبة المسرح. فإنطفئ النور المسلط عليه- فجأة- ليضاء فى جانب أعمق من ذاكرته، وتحول تلقائياً إلى مشاهد لادخل له بما يدور على الجانب الأخر من المسرح. فى إنتظار أن يحين دوره بالحركة والحديث. لايزال مؤشر "الراديو"يتم مداعبته، فأصدر موجات متداخله مابين الإذاعات المختلفة، فإختلط ترتيل الشيخ رفعت بغناء كوكب

الشرق التى شدت" ياصباح الخير ياللى معانا". وتخللهما صوت نحنة زوجته الذى غزا أُذناه. فتابع المشهد. وإستمع.

"الساعة السابعة صباحاً. تجلس زوجتى إلى صدر ترابيزة السفرة كعادتها الدائمة فى ذلك الوقت من كل يوم. تداعب مؤشر الراديو الذى أعطاه لنا والدى عند زواجنا. فيستجيب طوعاً لأنامها. ويصدح الشيخ محمد رفعت بصوته العذب ذو العرب، كنهر متعرج المسار فى إنحناءه يكمن الجمال. تُعد سندوتشات الأولاد ثم تُهيئ عُدتها من براد الشاى والأكواب والسكرية و"كنكة اللبن"، وتنسجم كسكير يتلذذ فى إرتشاف كوب الشاى الممزوج باللبن واحداً تلو الأخر. بل ولم تنتظر كثيراً حتى تقل سخونتة. فتحضر كوب أخر لكى تسكب الشاى إليه حتى يتسنى لها تبريده بسرعة. بعد ذلك ،نتلاقى حول ترابيزة السفرة لتناول الفطور المُعد.تحرك مؤشر الراديو نحو إذاعة البرنامج العام حيث تشدو نجاح سلام بأغنية "بالسلامة ياحبيبي بالسلامة" فى إعلان صريح عن بدء برنامج سكة السلامة. لحظتها يستعد الأولاد لمغادرة المنزل، والذهاب إلى المدرسة، وحين ألحق بهم مغادراً يكون "فؤاد المهندس" حاضراً بصوته الرنان، وكلماته الخفيفة، والموجزة ببرنامج" كلمتين وبس". بينما تستعد زوجتى لسكب كوب أخر من الشاى الممزوج باللبن".

سُلطت عليه الإضاءة من جديد. إيذاناً له بالتحرك داخل شقة العهد القديم وكأنها أرض من الأحلام. وإنزوى المشهد إلى عمق الذاكرة كما كان، وتلاشت الإضاءة فى إعلاناً صريح على نهايته. فصار منتعشاً للذكرى، ومفتقداً للألفة القديمة التى لا تزال مالكة عليه قلبه وعقله.فبرغم ظلمة المكان، تحرك بخطى ثابتة كخفاش لايهاب الإصطدام. دقت ساعة الجدار، فلم يعرف حقاً هل دقت فعلاً أم هو من أراد أن "تدق لينتشل ذكرى هنيئة مرتبطة بدقتها؟. فإستسلم طوعاً لمشهد جديد، يحاول أن يصعد من عمق الذاكرة، ليطفو فوق السطح. وبمجرد إستولاءه على كامل عقله. تحول تلقائياً إلى كومبارس صامت. توقف عن الحركة داخل الشقة، وكأن روحه نُزعت منه لتدب فى جانب أخر. لم تزل دقات ساعة الجدار مستمره...

"تدق ساعة الجدار الرابعة عصراً. أطأ أرض الشقة عائداً من العمل. توضع بعض أطباق الطعام فوق ترابيزة السفرة إيذاناً بالغداء. أغلق الباب إثرى، وأنظر نحو صور زوجتى وأبنائى المعلقة داخل إطارات، فيخترق أذناى صوت زوجتى، فألتفت نحو مصدر الصوت بسرعة. فإذا بها تضع باقى صحاف الغداء وهى تتحدث:-

- حمد الله على سلامتك.

تقولها، وتتجه نحو الردهة المؤديه للمطبخ. فأتبعها بسؤالٍ الدائم حين أعود من العمل:-

- أين الأولاد؟.!

فإذا بإبنتى تربت على كتفى متحدثه:-

- لم تأخرت؟!. الجوع قتلنا.

أستغرب. فأنا لم أتأخر عن ميعادى، ولكنها لاريب قالتها نتيجة لشعورها بالجوع. فبرغم ما يصيبنى من ضيق وفقدان للشهية،لمجرد التفكير فى عدم تناول الطعام معهم على ترابيزة واحدة.إلا أننى تأثرت لما قالت، بل وفكرت جدياً فى التخلى عن تلك العادة. صرت نحو الردهة الغير قصيرة مفكراً فيما قالت.وطغت بداخلى رغبة فى التساؤل عن الإبن. فإذا بى أستمع لصوت مداعبة الملعقة للطبق. فألتفت نحو مصدر الصوت، فإذا بى أراه جالساً على مقعده، مستنداً إلى ترابيزة السفرة موجهاً حديثه نحوى بإبتسامة:-

- تعبنا من الإنتظار.

يقولها،وهو يحاول إخفاء طعاماً بفمه ،تناوله من الطبق الموضوع أمامه.فإبتسمت لتلك العادة التى لم يتخلص منها يوماً،وسمحت بها بشئ من المرونة. أُكمل طريقى نحو غرفة النوم لأبدل ملابسى، فلم يزيدنى قول الإبن – وفعله– إلا تشبثاً بما قررته فى نفسى بشأن تلك العادة. يستمروا فى إعداد الطعام. وحين عُدت، رأيتهم يلتفون حول المائدة فى إنتظارٍ. وما أن يرانى الإبن قادماً، حتى يشرع فى تناول طعامه. أتحدث فى تواضع مصطنع:–

– لست سى السيد. فمن يشعر بالجوع فليأكل ولا ينتظرنى.

تتحدث زوجتى غاضبة:–

– لابد أن نتجتمع حول مائدة واحدة. هكذا تعودنا. وهكذا ستصير حياتنا.

فيتسائل الإبن:–

– من أرسى تلك العادة؟.!

– جدك. فنشأنا عليها، وأصريت أن أطبقها فى البيت، لما فيها من الونس والألفة والإحساس بمذاق الطعام فى جماعة، وليكن بيننا رابط دائماً... تلك المائدة.

تقولها وهى تضرب بيدها الترابيزه فى شئ من الحدة موجهة حديثها نحو الأبناء.

أبتسم لما قالت، وكأنها كانت تستشف مابداخلى. وصادف قولها ما أبطن. فأثني عليها قائلاً:-

- خير ما قولتٍ.

فى نفس الوقت، أثني على الإبن بضربة خفيفة على رأسه فى شئ من المداعبة، وترطيباً للجو. فنضحك. وأكمل :-

- وخير مافعلتٍ.

فأعاود نفس الفعل من مداعبة الإبن بنفس الحركة السابقة. فإيبتسم راضياً. وتضحك الإبنة ثم أشرع فى الحديث بإرتياحية عما حدث اليوم بالعمل، وأستمع بشغف عما طرأ بيومهم".

فجأة، أُضئ النور عليه كمن لايتوقع إضاءته. فتلاشت إبتسامته، ولمعت دموع عيناه بزوال المشهد المنقضى. فتقمص إغماضهما إتقاء أضواء أحس بأنها حقيقة. وحاول التشبث بالذكريات المنسية، وإستعادتها عنوة من قبضة النسيان. فصار تاركاً الترابيزة التى تقبع أوسط الصالة، مملوءاً بنشوة كسته، فكلما أقبل من

قطعة أثاث داخل الشقة، تهل معها جزءً من نفسه القديمة. فإتجة نحو دولاب كبير يستند إلى الجدار فى مقابلة السفرة. يقبع بداخله تلفاز قديم ماركة ."NAC" فنزع عنه غطاءه، غير عابئ بالتراب الذى كسا المكان. فبدا له كوجة قديم فى تقاسيمه تكمن الأحداث، وفرح لرؤيته كشخص فى صحبته قضى عمره الفائت بمسراته وأحزانه. هم بتشغيله، فألقى وهج إضاءته على كنبة "إستديو"، توضع أمامه بمسافه بعيدة، لايفصلهما عن بعضهما سوى ترابيزة السفرة. فداعب أذرته الجانبية، وهيئ الإشارة كما كان يفعل قديماً، وقام بتعلية الصوت من ذر دائرى أسفل لوحة الإرسال. فتخيل صوت الموسيقى التصويرية لمسلسل " ليالٍ الحلمية" يطغى على المكان. وحضر مشهد كاملاً إستوجب إطفاء نوره على ذلك الجانب من المسرح. وتحول بسرعة البرق متابعاً لما يدور فى عمق ذاكرته على الطرف الأخر من المسرح.

"الساعة الحادية عشر مساءاً. موعد المسلسل التلفزيونى"ليالٍ الحلمية". أجلس عند أول الكنبة " الاستديو" القابعه بعرض الحائط المقابل للتلفاز، مستنداً إلى وسادتى، مقرفصاً ساقيٍ تحت الغطاء. بينما تستند زوجتى إلى ساقى تحت نفس الغطاء. ويستند الإبن بدوره إلى أمه بغطاءه بعد أن أنهى مذاكرته، وأكملت الإبنة الصف بالإستناد بوسادتها إلى ساقى أخيها المقرفصتين شأنى،

متلفعه بغطاءها بعد أن أنهت – هى الأخرى – مذاكرتها. لايزال تتر البداية مستمراً. أبدأ بتوزيع أطباق اللب والسودانى على الأسرة المنكمشة فى دفء من لدغات البرد. يغلفنا صمت المكان وظلام الشقة، فيما عدا إضاءة التلفاز، وأصوات أبطال المسلسل".

يهبط المشهد المنقضى فى عمق من اللاوعى. ويطفئ النور على ذلك الجانب من المسرح. ويضئ عليه هو، ويبقى فى عيناه المشهد كلوحة فنية تسرة كلما أراد إستحضار شئ من نكهة الماضى. فإبتسم لتذكره. وتحسر عليه بإنقضاءه. أكمل السير داخل الشقة بخطوات بطيئة، ففتح غرفة جانبية كانت للضيوف. يقبع بداخلها صالون قديم، ورثه عن أبية، ورضيت به زوجته بل أضفت عليه روح من التجديد بالتنجيد. فأضحى كعروس تعدت الخمسين، ولكنها لم تزل مقبلة على الحياة كفتاه فى العشرين. كانت الحياة بسيطة والأنفس قابلة للتيسير. إرتخى إلى أحد المقاعد مبتهجاً لما إستحضرته الذاكرة. وإنخلع قلبه من مكمنه، وتراقص طرباً لرؤية العود– الخاص به– معلقاً بأحد أركان الغرفة الضيقة التى لم يشعر يوماً بضيقها. فإتجة إليه مسرعاً، وأزال عنه الغطاء والتراب، إحتضنه معاتباً لنفسه. كيف تركه ولم يأخذه إلى الشقة الجديدة؟!. فتذكر لحظة مآساوية – حاول تلاشيها– هى ما أعاقته عن نقله معه. تلامست أصابعه بأوتاره فى إنسجام. فأثارت

موسيقاه الذكرى. وتسربت الأحداث كخيط إنفلت من بكرة الزمن، وإلتف بعقله، فإستسلم للظلمة التى طغت عليه حين سحب منه الضوء عنوة. وترك المساحة لمشهد طفا من عمق الذاكرة، وسُلط الضوء على مكان حدوثه .

"فى يوم ما، يُطُرق باب الشقة فى إيقاع مدروس، فتترك إبنتى غدائها، وتنطلق نحوه لتفرجه، وينظر من بقى حول المائدة نحو الباب. تقبل الإبنة وهى تسحب بيدها فتاة فى مثل عمرها، تمتلك عود فرنسى رشيق، مفعم بالحياه، برز جماله مع الأيام مما دفعنى لأن أدعوها- فى وقت لاحق- بالرافال. علاوة على وجة ملفت للنظر، ملئ بتفاصيل الإثاره. هكذا رأيتها لحظة وقوفها نصب عيناى. وهكذا سميتها. فتحدثت الإبنة إلى زوجتى:-

- هذة صديقتى التى حادثتك بشأنها.

تصافح الرافال زوجتى، فتشير إليها بالجلوس ومقاسمتهم الغداء الذى أوشك على الإنتهاء. تعتذر بأدب أدركت فيما بعد أنه مصطنع. حينها كنت قد أنهيت غداءٍ. وإحتميت بين أحضان الغرفة لأحلق فى عالم العزف والسمو الروحانى، فتلك سمتى

الدائمة فى ذلك الوقت. لذا كنت موظف مختلف فى نطاق عملى. تتحدث الزوجة:-

- ليس لدى مانع فى إقامتك عندنا، حتى تعود والدتك من السفر. ولكن يبقى الرأى لـ...

فتكمل حديثها بالإشارة نحو غرفتى المغلقة، بينما يتعقد حاجبى الرافال فى إستفهام، ينقطع مع أخر ضربة لى على حبال العود، ثم أفرج الباب".

عاد للتحرك حين أدرك بخبرته نهاية المشهد، وبداية حركته. وربما هو من أراد بقوة إنهاء ذلك المشهد ونسيانه، لما رأى فيه بداية إنفراط العقد، وبزوغ تيمة الوحدة التى إتسعت رقعتها بحياته فى غفلة منه حتى طوقته. فإتجه نحو الشرفة الموصدة. وهم بإفراجها حتى يتسنى له إستنشاق هواء جديد. إنفرج ذراعى الشرفة، فتماوجت طوعاً -بعد عناد- لنسائم الهواء الذى إجتاح المكان محملاً بعطرها القديم. أصابه الإستغراب، كيف للتراب أن يصبح عطراً؟!. رفع يده عن أنفه ليتأكد مما إستوطنه. فلم تكذبه حاسته. وأحس بأن الضوء يسحب من جديد. فآثر الصمت والسكون.

وإلتفت بحركة تمثيلية نحو العودالمعلق بجانب الشرفة، حين أحس بموسيقى أنت عمرى، تغزو أذنه، فتعيده لمشهد أخر متمم.

"تضـرب الرافـال علـى العـود بعنـف، معلنـه حالـة مـن التـذمر والإضـراب عن العزف، كمحاولـة فـى إخراجـى من حالـة السرح. ألتفت نحو مصدر الصوت. فإذا بها تجلس على أهبة الإستعداد للعزف، فتداعب مقدمة العود بيدها اليمنى بينما تغازل مؤخرته باليد الأخرى. وتعاجلنى بلهجة بها حدة عاشق أحس بالإهمال، قائلة:-

- الأ نبدأ الدرس؟.

يخطفنى وميض عيناها، كقط أنام فاراً مغناطيسياً. فأومأ راضياً، وأبتعد عن الشرفة، متجهاً نحو المقعد المقابل لها .أستمع إلى ماتعزفه كما علمتها، حين سئلتنى أن أعلمها. لم أعرف كيف تعلمت بسرعة حتى أمست متقنة اللعب عليه. ولم أعرف كيف تحولت من موظف أربعينى إلى عاشق يتراقص على أوتارها؟. فمنذ أن هلت علينا، وهى الشخص الوحيد الذى يشاطرنى الولع بتلك الهواية. حين أنهت العزف. صفقت لها بلا إرادة، وبحرارة زائدة. فتحضننى جراء ذلك بينما أنتفض،وأهم بتوديعها والخلود

للنوم. فتعاجلنى بإخراج علبة، وتهم بإفراجها، وسط إستغرابى وتحديقى. فإذا بها تمد لى"موبايل إريكسون". فأشعر بأنه حبل يجذبنى نحو المحظور. فبقدر مافرحت به، بقدر ماجاهدت فى ألا أأخذة.تفرجه ثم تضع بداخله خط "كليك"، وتبدأ فى تشغيله حتى تقضى على كل ذرة تردد بداخلى. الحق أننى تمنيت شراءه فى وقت سابق، ولكننى لم أملك المال الكافٍ لذلك. وظل هواه يطاردنى حتى فى أحلام اليقظة. فكيف لى الأن ألا أأخذه؟!، وقد أصبح قاب قوسين أو أدنى. جلسنا إلى جانب بعضنا، وتحاول هى تلقينٍ كيفية إستعماله. فأستمع طائعاً حتى تنتهى من الشرح، تتملكتنى الرغبة فى التجريب، فتترك لى المجال. فأنسجم فى الفحص والتمحيص، فتقترب لتُرينى شئ به يستعصى على فعله. فى تلك اللحظة أشعر بأنفاسها تلفحنى من كل جانب، وتلمس يداى دون قصد صدرها المكتنز فى توتر، فتلسعنى حرارته، مما أدى لإنتفاضى من مكانٍ. كعذراء فى ليلة عرسها. فأهم بالمغادرة بعد أن شكرتها. ورغم كل ما أتوجس منه، لم أترك "الموبايل" الذى ملك لُبى وكامل جسدى. أغادرالغرفة بسرعة، وأغلق بابها إثرى، ولم أعلم بأن داخلى باب أخر إنفرج على مصراعيه".

أُسدل الستار على المشهد الفائت. فأحس بأن إضاءة المسرح الوهمى تنير له الطريق. حينها كان يقف خارج غرفة العود، فإتجة

نحو غرفة النوم دون أن يتحسس الطريق، وهو لم يفرغ بعد من آثار شهوة المشهد السابق وكأنها حديثة العهد. أفرج باب الغرفة الراكدة فى السكون والظلام. فأحس بلهفة إليها، كمهاجر عاد إلى وطنه بعد طول إغتراب. ورغبة فى الإحتماء بزوجته مما حدث. مكث إلى مقعده الهزاز، ملجئه الدائم حين يجيش به التفكير ويستولى على لجام عقله. وبدأ يفكر من جديد فيما حدث بينه وبين الفتاه. كيف إستطاعت فتاة فى عمر إبنته أن تحوله لمراهق يسهل إستثارته؟!. وكيف إستسلم للتفكير فيما حدث ولم يخطر زوجته؟!. وهو فى عمق التفكير، أنار الأباجورة بجانبه دون وعى. ولم يعرف بأن فى ذلك إشارة لإضاءة مشهد أخر فى عمق ذاكرته، ويجاهد بقوة للطفو فوق السطح، فأفسح له المجال مرغماً.

"لم أزل جالساً على مقعدى، ولم أخلد للنوم كما تعللت للرافال. أمسك "الموبايل" الذى منحته لى، فأداعبه بإعجاب وتفحص حتى تملك كافة حواسى، كما تمكنت صورتها من مخيلتى، ولمساتها من كامل جسدى. تعمقت بالتفكير فيما حدث وإنشغلت بها تارة. ونظرت نحو زوجتى الغارقة فى النوم والأحلام، وقررت إخطارها بدافع من تأنيب الضمير تارة أخرى. عزمت الأمر على إيقاظها ومصارحتها. ولم يعوقنى عن ذلك سوى إنارة "الموبايل"

بيدى، مُحدثاً صوتاً، فإذا بها رسالة نحيلة من رقم غريب. أفض مافيها كما علمتنى:-

- مبارك عليك.. هذا رقمى.. إحتفظ به.

أشعر بأنها تراقبنى، وتقود أفكارى نحوها دون قدرة منى على تقرير المصير. أحسست وكأنها تضغط على الجزء المملوء بميل إليها والإنبهار بها، حتى أطفح بعشقها. فتناثر تأنيب الضمير فى الهواء بعد أن قيد العقل بحبال القلب. ووقعت فريسة للكتمان فى عالم يتحول فيه كل ذا عقل إلى فريسة جيل جديد وأفكار جديدة. أتجه نحو الفراش، وأطرح جسدى جانب زوجتى معطياً ظهرى لها ثم أعيد قراءة الرساله مرات عديدة بإنتشاء".

إنتهى المشهد. ولم يزول آثاره من رآسه. فترك مكانه على المقعد، وهوى بجسده على الفراش، فى ذلك الجزء الذى كان مرقد زوجته فى يوم ما. وسبح فى تأمل حياة الأمس، كمحاولة بائسة لإعادة الروح لجسد الماضى المتوارى فى النسيان. فى تلك اللحظة راوده إحساس شديد بمصارحة زوجته بما لم يخبرها به سابقاً. وتحسر لأنه لم تعد تجدى المصارحة كما لم يعد يفيد الندم. لحظتها أحس بأن الوسادة مرتفعة عن وضعها الطبيعى، فحاول تسويتها وهو

يتفحص ماتحتها. فترآى له إيشاربها الذى كانت دائماً ما تضعه فى ذلك المكان، لتعقد به رأسها حين يتملكها الصداع. ولكن هيهات ماتخلعه قبل أن يعود للمنزل. هذا ما أفشته له إبنته – فى يوم ما– حين هم بمغازله زوجته بطريقة رومانسية حالمة. ولم يكتفِ بذلك بل دعاها " ببرجيت باردو". وهذا مادفع الإبنه للحديث ضاحكة:-

- تتجمل لك. وتعذبنا بتعقيدة رأسها طول وقت غيابك.

يبتسم، ويستنشق رائحتها من الإيشارب. فلم يزل تأنيب الضمير يقطع قلبه. حاول التغلب على ذلك الإحساس بالإنغماس فيما يخصها من أشياء. فتح درج "الكومدينة" القابع بجانب الجزء الخاص بمرقدها. وداعب ما به من متعلقات ممزوجة ما بين خيط وإبر للطوارئ، ومشط لتسوية شعرها، وعلب أدوية فارغة وبعضها أنصاف ممتلئة، ومصحف صغير، وسبحة، وكشاف صغير لقراءة القرآن ليلاً، حتى لاتوقظنى، ولا تغادر فراشها فى ليالٍ البرد. ولم يخلُ ذلك من صور الأبناء تحت باغة زجاجية أعلى "الكومودينه"، وصور لهما فى الخطوبة والعرس. فقد جعلت من إطار الزجاج– أعلى الكومودينه– لوحة شرف للعائلة. وزاغت عيناه نحو أجندة صغيرة، سجلت بداخلها كل مايخصها من أمال

وأحزان وأحداث يومية بالتاريخ. فوقعت عيناه على تاريخ بعينه، فإستجاب لتذكره فى حالة من الإنصياع.

"الساعة الرابعة عصراً. أطأ أرض الشقة عائداً من العمل. أحضر معى "الموبايل" كمفاجأة لهم، مختلقاً فكرة مقنعة لتبرير وجوده. أتقدم من ترابيزة السفرة الخالية من صحاف الطعام. أنظر نحو ساعة الجدار التى تدق فى ميعادها لتقضى على توجساتى. أضع "الموبايل" أوسط الترابيزة، بينما لم أضع مخاوفى لما أصاب الشقة من صمت وإنقطاع الصوت والحركة فى المكان. أندهش لإختفاء التلفاز القديم، الأحدب. هكذا كنا نسميه لما له من ظهر مقوس. وحل بمكانه تلفاز جديد ماركة "توشيبا" لم يتنصل بعد من تقويسته. ناديت زوجتى. فلم يجيب أحد سوى التلفاز الجديد، الذى أُضئ فجأة على قنوات فضائية غريبة علينا، تلك التى رأيتها عند أحد الاقارب، ولم تنسى الزوجة يوماً كيف تمهد طريق دخولها للمنزل. تهل الزوجة والأبناء والرافال من غرفة جانبية، وتضع الزوجة" الريموت كنترول" فوق الترابيزة. فتتملكنى رغبة فى الإستفسار والتساؤل، وينتابهم نفس الشعور حين يترآى لهم "الموبايل" قابعاً فوق الترابيزة. فلم أخذل كلمات تقف على طرف لسانٍ.أهم بالحديث. فتعاجلنى زوجتى وكأنها أحست بما يجيش فى عقلى:-

- إبتاعته زميلة إبنتنا، حين علمت رغبتى فيه.

- كيف؟.!

- أرسلت والدتها المال. فإبتاعناه، وإشتركنا فى وصلة دش من الشارع.

لم أستطع أن أُخفى بداخلى مشاعر متضاربة، ولم أستطع أن أظهر منها سوى الإبتسام والإنسجام فيما غمر الأسرة من سعادة، والتوجس والخيفة مما تفعله الرافال المدللة بحياتنا. إبتسمت لها حين إبتسمت لى، وكأنها أجبرتنى على ذلك بلا قدرة على كبح قوتها الخفية. ولم أطيل حالة التفكير أو ربما لم يمنحونى الوقت الكافى للتفكير. فتلقفو" الموبايل" بالفرح والإنبساط. وتسائلوا عن مصدرة . فأخطرتهم وعلى ملامحى إبتسامة مصطنعة:-

- إبتعته شريطة أن يخصم مبلغ بسيط من راتبى كل شهر.

فما بين فرحهم وإنبساطهم "بالموبايل"، والإنسجام فى تحويل قنوات"الدش"، والنظرات الخفية بينِ وبين الرافال. تأخر الميعاد الرسمى للغداء. ونسيت تأنيب الضمير. ولم أدقق

كما كنت أدقق حين يتغير أى شئ أعتدت عليه. فرغم مايجيش بداخلى من قلق تجاه ماتغير، أشعر بأن شئ ما يلجمنى عن البوح والإعتراض، أتربع فوق الكنبة "الأستديو" أمام ترابيزة السفرة بعد أن أبدلت ملابسى وغسلت وجهى. أداعب "الموبايل" فى إنتظار أن تُعد زوجتى الغداء. وتشرع الرافال بتعليمى كيفية أستقبال الرسائل؟، وكيفية أجراء المكالمات؟. بينما تنسجم الإبنة وزوجتى فى إعداد الطعام بسرعة حتى يتسنى لهم متابعة المسلسل الذى أنساهم إعداد الطعام فى ميعاده. فبالتالى تأخر ميعاد العزف على "العود"، كما تأخر نوم القيلولة بعد الغداء. يوضع الطعام، فنلتف حول الترابيزة، وتتحدث زوجتى بتمنى:-

- فى يوم ما سنشترى لغرفة نومنا تلفاز أخر، ووصلة دش أخرى حتى لانضطر للجلوس على الكنبة بالصالة فى ليالِ البرد.

تقولها وتصمت، وتشاركها إبنتنا التمنى ثم يسود الصمت لمتابعة التلفاز، ولم نتبادل كلمة عن ماحدث خلال يومنا كما هى العادة. خلال تلك اللحظات أختلس نظرات خاطفة مع الرافال، لم يلحظها غيرها، ولم ينقذنى منها سوى إنفصال الكهرباء فجأة، وإنقطاع الضوء".

إنتهى المشهد، وصعد الوعى درجة أخرى نحو الواقع. ولم يزل جالساً إلى الفراش، ممسكاً بأجندة زوجته، ومتفحصاً لها. فقد قرأ بأجندتها الخاصة ما تمنته على ترابيزة السفرة بأخر المشهد المنتهى. فإحتفظ بالأجندة كشئ من رائحة الماضى. وتقلب فوق الفراش كتقلب الأيام والاحوال. وترك الغرفة بعد أن أغلقً بابها، وكأنه أهال التراب راضياً على ذلك المشهد. وبحث عن السعادة فى ركام الماضى فلم يجد سوى أسباب زوالها. وإذا بغرفة موصدة لم يطرقها بعد. فإتجة نحوها. وأفرج بابها وهو يعلم كم الذكريات المتصلبة إثر الباب. رفرف قلبة فرحاً حين رأى تلك الأرفف المستندة إلى الجدار والمليئة بالكتب التى إقتناها على مدار أيامة الخالية. وآثر أن يبقيها فى غرفة الأبناء لما فى ذلك من تثقيف لهما وتنمية لعقولهم. نظر مشدوهاً كطائر حلق فى رحاب الكون الفسيح بعد سجن طويل. هكذا كان يشعر حين ينغمس داخل كتاب واحد فما باله يكون أمام جل تلك الكتب. فلكل كتاب منهم قصة. يتذكر جيداً كيف إقتناه؟. ولم؟. وماذكراه معه حين قرأه لأول مرة؟. ومن عرض عليه قراءته؟. وما سر تلك الإمضاء فوق كل كتاب؟. وقصة كل إهداء؟. وتلك العلامات التى وضعها عند الجمل التى إستوقفته حينها؟. وأى الحالات التى كان يمر بها حين إستوقفته تلك الجمل التى حددها بعلامتى

التنصيص؟. فيض من المشاعر والأحداث والأفكار والذكريات تهل عليه لمجرد ذكر كلمة كتاب، فكيف تكون مشاعره حين يقف أمام تلك المكتبة الشاسعة الأفكار، شامخة الجسد. راح يمسك برواية "جين إير" كأول رواية قرأها فى حياته. فأعطاها لأبناءه لتكون أول رواية يقرأوها. كان متعاطفاً مع جين إير دون أن يجرب اليتم. الأن أكثر تعاطفاً حين تذوق طعمه. لفت إنتباهه بأن هناك جين إير أخرى داخل المكتبة. فتذكر عادته الدائمة فى شراء نسختين من كل كتاب- بعدما رزق بولديه- حتى يحفزهما على قراءة نفس الكتاب فى وقت واحد ، والمنافسة، ومناقشتهما فيما قرأوا. فينهال على القارئ الجيد بالعطايا. أعاد الرواية إلى مكانها، ونفض عن نفسه غبار تسلل إليه من الأرفف التى لم تغطى كما توشح كل شئ بالشقة. فمسح ببصره أرجاء الغرفة لعل هناك أشياء أخرى لم تغطى. فلم يجد شئ أهمل وتوشح بالتراب سواها. وترآى له "كمبيوتر IBM بشاشة مقوسه"، تغطى بإحكام. فنزع عنه غطاءه، فبدا كما لو تم إبتياعه تواً. لم يشير رغبته فى تذكر شئ ما سوى إرتباطه بأسباب مجيئه. وسرعة أكبر للإنفراط. فدخل فى عراك مع نفسه مابين الرغبة فى تذكر ما يحب كالكتب والأشياء الجميلة التى يحبها وجاء من أجلها ومابين أسباب إنهيار الصرح .فظل يتجاهل تلك الرغبة حتى خيل إليه أنه تلاشاها فإذا

به يفكر بها حقاً. فإستسلم لها، وإتجة نحو" الكومبيوتر"بحركة مسرحية، وكأنه يستعد ليهبط بوعيه إلى مرحلة أخرى من اللاوعى حيث إنتشال ذكرى أخرى وتسليط الضوء عليها.

"الساعة الخامسة، فى يوم أخر.الترابيزة خاليه من أطباق الغداء.أخلع ملابسى، وأغسل وجهى ولم تضع زوجتى الطعام بعد. كانت علتها بأن الوقت سرقها أمام التلفاز. تمددت فوق الفراش، تابعت القنوات الصادرة عن تلفاز غرفة النوم تارة والإنسجام فى مداعبة "الموبايل" تارة أخرى. فى إنتظار أن تعد الغداء. أقرأ الرسائل كلها الواردة على "الموبايل" من الرافال . فأراها تبدأ بمباركة على الموبايل الجديد. وتنتهى بتلك الرسالة التى وصلتنى تواً وأنا بمجلسى فوق الفراش:-

- هل تعلم أننى أحبك؟.

أشعر بفرحة داخلية لأننى مرغوب فى ذلك السن. وأتضايق لشعورى بالأنسحابٍ تلقائياً من الحياة السابقة. وأن ماكان يضايقنى بالأمس ولم أسكت عليه ولا أدعه يمر مرور الكرام. أصبحت الأن أتقبله اليوم بهدوء أعصاب. فإستغرب نفسى بقدر ما إستغرب زوجتى التى أمست شيئاً فشيئاً تتهاون مثلى، ولم

تندهش لما طرأ علي حياتنا. بل كانت ممتنة لذلك. فبقدر ما أنساق فرحاً وراء الرافال وعالمها، بقدر مايساورنى إحساس بشئ من الخوف نحو فقدان شيئاً ما أو كخوفى من الإقدام على العيش فى بيئة مختلفة بهوية مختلفة تماماً ، تختلف عن بيئتى وهويتى. فى خضم ذلك، سمعت باب الشقة يفتح. فتسللت خفية لأرى. فإذا بالأبن يتسحب كحية نحو غرفته. أتذمر لأن هناك من حل بالمنزل بعد مجيئى. فتلك هى القشة التى قسمت ظهر البعير بداخلى. وكان ذلك دافعاً للثورة ومحاولة أخيرة لإعادة الامور كما كانت. أهم بالحديث فى حدة إلى زوجتى مستغلً تأخرها فى إعداد الطعام، لكننى أري أطباق الطعام متراصةً فوق الترابيزة. أتجه نحو مقعدى، وأبدأ فى المناده على أفراد المنزل. نلتف حول الترابيزة ثم أبدأ فى توجية حديثِ نحو الإبن:-

- متى عُدت من المدرسة؟.

- أريد أن أشترى "كمبيوتر"

الحق أننى إندهشت من إجابته، كما لو كان يعلم ما أرنو إليه فقصر المسافات. ثم إسترسل فى حديثه بتوجس:-

- لكى أكون صريحاً. تأخرت اليوم. وربما أتأخر مرات كثيرة. لأننى أذهب إلى محلات الكمبيوتر. وأدفع مبلغاً نظير حجز "جهاز كمبيوتر" لنصف ساعة.

بقدر ماتضايقت لتأخره وأسلوبه فى المواجهة، بقدر مافرحت لما رآيته من شجاعته وصراحته. لذا وعدته بشراءه حين ينجح بالثانوية، شريطة ألا يعود لفعلته. صمتنا، وهدءت ثورتى ولكن ظل الخوف قائماً بداخلى. هممت بالتحدث عما طرأ بيومِ، ولكننى لم أجد الرغبه فى ذلك. ولم يتحدث سوى أحد أبطال الفيلم، الذى تعرضه إحدى القنوات الفضائية. سرعان مايقطعة مشادة خفيفية مابين زوجتى وإبنتى، إحداهما تريد أن تكمل مسلسل قديم والأخرى تريد متابعة فيلم شبابى جديد ،من رحم الألفية الجديدة. بينما تكتفى الرافال بمتابعتة مشادتهما تارة وإلقاء سهام نظراتها خلسة إلىً تارة أخرى. ينتهى العراك بإنتصار إرادة الزوجة. فأشعر برغبة باديه على وجهه لإبنة فى أن تنهى والدتها الطعام حتى تنزوى بغرفتها – فى أسرع وقت ممكن– و تترك لها تلفاز الصالة. ينهوا الطعام فى عجالة، وتتجه زوجتى إلى غرفتها، فتشعل التلفاز، بينما تجلس الإبنه بالصالة لتكمل غدائها وهى تشاهد الفيلم. وأهم بالإتجاه نحو الغرفة لأداعب "الموبايل" الذى

أمسى جزءاً لايتجزء منى. فتتحدث الرافال موجهة حديثها إلىٍ بخبث:-

- "ألا تعزف اليوم"؟!

لم يزل على فراش إبنه، متعمقاً فيما حدث. محاولاً الإجابة على ذلك السؤال الذى لم يزل يتردد صداه برأسه. هل كان يريد الهرب أم أنه لم يعد يعشق العود كما كان؟. لاريب أن فى الإجابتين ماينطوى على صواب.هذا ماتوصل إليه حين تذكر إنغماسة الدائم فى عالم "الموبايل"، وعشقه له حد التحرك به فى كل خطوة. وهذا ماجعله يتلاشى درس العود، نائياً بنفسه عن لهيب الإقتراب منها، مكتفياً "بالموبايل" حتى لا يقع فى المحظور. وإكتفى برسائل الحب المحسوس بين السطور وداخل جوف الحروف. وراوده ميل نحو البحث عن ذلك "الموبايل" القديم. فإنتبه لنظرته المسددة نحو "الكمبيوتر"وكأنه يستحضر من عمق شاشته الأحداث. فإستسلم لإستكمال أسباب إقدامه إلى شقته، وتناسى فكرة البحث عن "الموبايل". فتحلل فى ظلام المكان كجسد يواريه التراب. وأُخلى الساحة للأحداث التى إستدعاها من عمق الذاكرة، وتابعها فى هدوء.

"بعد نوم القيلولة". نمكث إلى ترابيزة السفرة من جديد. أستذكر للإبن دروسه كعادتى الدائمة. وأستعيد مع إبنتى ماأخذته بالدرس الخصوصى، وبالتالى الرافال التى إنضمت للعيش معنا، وإستمرت لفترة حتى بعد أن عادت والدتها من الخارج. وتعللت بأنها لم تشعر بالود والألفة كما شعرت بها فى منزلنا. فتركتها والدتها مكتفية بزيارات خفيفة، ومتعللة بكثرة أعمالها.يُطُرق باب الشقة. فإذا بصديق إبنى، يطلب بوداعة مصطنعة أن أسمح لإبنى بالذهاب لأداء صلاة العشاء. حجة جديدة من مخزون الحجج يختلقها صديق إبنى، حتى يستطع الإبن مغادرة المنزل فى ذلك الوقت. بالأمس أقسمت على ألا أسمح له بالذهاب لشراء العشاء، وذلك لتأخرة فى العودة دون السؤال عن السبب، وإكتفيت بالتحذير. ولكن اليوم قررت أن أستمتع بلعبتهم لأعرف ماتنطوى عليه. فتسائلت:-

- أى المساجد ستصلون به؟.

فوصفوا لى مسجد بعينه. وغادروا. توضأت، وتبعتهم خفية، ولم أراهم يدخلون المسجد. بل إتجهوا نحو محل أدوات كهربائية، فإنزوا بداخله. فيملؤنى الإستغراب.فاسئل شاب يقف فى صحبة أصدقائه أمام المحل. فأوضحوا لى أنه محل

لإستئجار "الكمبيوتر". وما دفع صاحب المحل لإخفاء الإجهزة خلف واجهة المحل ماهو إلا خوفه من المصنفات. أعود إلى الشقة بعد أن صليت ، ولم أصادفهما فى المسجد. أجلس منتظراً عودته. وحين يأت متأخراً بعد إنتهاء الصلاه، أتسائل عن أسباب التأخير، فيتحدث قائلاً:-

- إستمعنا لخطبة بعد إنتهاء الصلاة .

قررت أن أستكمل الحديث الذى إختلقه حتى آخره. فأتسائل:-

- وعن ما كانت تتحدث؟.

- عن خلق المسلم.

الغريب أنه قالها بسرعة وحزم حتى يكون مقنعاً. فأشعر فى التو بأن فى حديثه تبديل للحقائق وإقتناعاً بتصديق الكذب. فيترأى لىوكأنه شخص أخر لا أعرفه، كما أنتابنى إحساس بأننى أقترب من تصديق كذبه وتكذيب نفسى.هذا ما زاد من حنقى وأثار الدم بعروقى مما دفعنى لصفعه بلا وعى. فطُبعت أصابعى على وجهه. وقررت مقاطعته لفترة إقتناعاً بأن فى ذلك تهذيب له. وإعادة إليه تلك الروح المليئة بالصفات الحميدة التى زرعتها به.

خلال تلك الأيام إنقطع صديقه عن طرق بابنا، تخيلت أو هكذا سولت لى نفسى بأن وراء ذلك، هو مقاطعة الإبن له إعترافاً بأنه كان سبباً فيما أذنب، وإرضاءاً لى. ذات يوم سألت عنه. فأخبرنى:-

- إبتاع "كمبيوتر". فما الذى يدفعه للذهاب لمحل "الكمبيوتر" مرة أخرى؟.!

أنهى الإبن إمتحانات الثانوية، ووطأ عالم الجامعة. وأصبح واجباً علىِ الإيفاء بما عاهدته عليه. الحق أنه لم يلح فى الطلب. ولكنه بدا فى عيناه جلياً كوهج الشمس فى نهار حارق، فكان واجباً علىٍ أن أنفذ ما وعدته به، وحتى لاتهتز قيماً حميدة هممت ببثها فى نفسه كالإيفاء بالعهود. ولكن كيف؟. "فالكمبيوتر " أسعاره مرتفعة والمرتبات هزيله. وأضحى "الكمبيوتر" شئ ضرورى لاغنى عنه فى حياتنا، وصار من لايملكه إنسان ليس من عالمنا. كل ذلك دار برأسى وأنا عائداً من العمل. أطأ أرض الشقة. تشاهد الرافال التلفاز بالصالة. حين ترانى تستقبلنى بالترحاب. أشكرها بتصنع، محاولاً الهرب من نظراتها بالسؤال عن الأولاد. فتأخذنى من يدى نحو غرفة الأبن. فإذا بجهاز "كمبيوتر"

يوضع فوق ترابيزة خاصة به، وتنضم إلينا زوجتى ثم تتحدث – قبل أن أسئل–وهى تقبل الرافال:–

– أرسلته لنا والدتها".

سُلط الضوء على وجهه، ولم يزل الإستغراب متمكناً منه. كيف إستطاع أن يصمت لكل ماطرأ على حياته؟!. وكيف رضى بكل مستجد ليمحو كل قديم دون رابط؟. وماذا لو لم يستمع لرغبات عائلته ولا ينفذها إلا بمقدار وحكمة وأولهم هو؟. ربما لن يكون الأن متحسراً على وضعه. تحول من حالة التفكير والتأمل فى الماضى إلى تفحص الغرفة والوقوف على أرض الحاضر. وأحس بالضعف والهزل. فكلما أوغل فى الماضى البعيد تعيدة المشاهد المتتابعة بخطوات سريعة نحو واقعه الأن.

وأضحى فى إحتياج إلى عصاه حتى يستطع إستكمال السير، فصار نحو الشرفة منزوع الفرح ملبد بالإحزان. وتنسم هواءنقى ليزيل حالة الركود والرتابة الطاغية على الغرفة. فلم تستجيب إليه بسهولة. حاول التغلب على إحساسه بالوهن بالإستقواء. فترأى له سلك ينفلت من بين ذراعى الشرفة. ويزحف بمحازاة الجدار المعلق عليه"بوسترز" لنجوم كرة القدم العالميين، ومطربين

عـالميين وأخـرين مـن عـالم الفـن والسـينما. فتتبـع بنظـره سـلك الإنترنـت المحـازى للجـدار تـارة، ومجموعـة "البوسـترز" المعلقـة بعـرض الجـدار تـارة أخـرى. فـإذا بطـرف السـلك يثبـت بجهـاز "الكمبيـوتر" الـذى يرتكـز أعـلاه "بوسـتر" صـنعه الإبـن لنفسـه بقصـة شـعر "spike"علـى غـرار النجـوم العـالميين الـذى تتنـوع قصـات شـعورهم. فتح الشرفة بعد عنـاد. وصـار وراء السلك نحـو "الكمبيـوتر" فجلـس إلـى مقعـد ثبـت أمامـه وكأنـه فـوق كرسـى الإعتـراف. ضـغط ذر "الكمبيـوتر". فإشـتغلت أغنيـة أجنبيـة صـاخبة. هكـذا تخيـل مثلمـا تخيـل أن "الكمبيـوتر" يعمـل. وأحـس بأن مافعله شئ خارج عن إرادته، بغرض إستحضـار مشـهد قديم. أظلمـت الغرفـة مـن جديـد، وتلاشـى إلـى نفس لونهـا. لتضـئ مـرة أخرى فى زمناً أخر أو ذاكرة اخرى.

"ذات يوم، عُدت إلـى المنـزل، لـم أكـن أنتظـر– كمـا كنـت – أن يوضع الطعام فى وقته. فقد ولت تلك الأيام. كانت الصالة خاليه، بينمـا يتنـامى إلـى مسمعى صـوت أغنيـة أجنبيـة صـاخبة ممزوجـة بهمهمة صوت تلفاز غرفة النوم. إتجه نحو الغرفة لأبدل ملابسـى. تسئلنى زوجتى إن كنت أريد تناول الطعام الأن أم لا؟. فأستغرب قولهـا، فأشـعر بأنهـا تناولـت طعامهـا ولكنـى أفتـرض حسـن النيـة، معتقـداً بـأن مادفعهـا لقـول ذلـك مـاهو إلا رغبتهـا فـى إكمـال

ماتشاهده. أشير عليها بتحضيره. أتجة نحو الحمام لأغتسل. وتشرع هى فى نقل الغداء إلى ترابيزة السفرة، ورصه بمفردها. نجتمع وحدنا دون الأبناء فيما عدا الرافال التى لازالت تلازمنا. كنت أعرف أن هذا الوضع آت لامحالة، ولكننى لم أتوقع سرعته، وخاصة أن الأبناء لا يزالوا فى كنفنا. لم يغادرا المنزل بعد. فأتسائل عن الإبنة. فتجيب زوجتى:-

- لم تعد بعد من جامعتها.

ثم تكمل حين تحس بالسؤال الواقف على طرف لسانٍ:-

- أما الأستاذ..

تشير نحو غرفة الإبن التى لايزال صادراً عنها الأغانى الصاخبة ثم تتمم:-

- فقد تناول طعامه أمام "الكمبيوتر" منذ نصف ساعة.

لم أستسلم، فأنادي عليه، يخرج عن غرفته، فأسئله- بأمر- أن يتناول الطعام معنا، لكنه يعيد على مسمعى ما قالته زوجتى. مما يدفعنى للتحدث بغيظ :-

- أنت حر. روح..روح.

وأشيح له غاضباً، غير عابئ بتأثير لهجتى عليه كشاب بالجامعة. وهممت بإتخاذ قرار جاد بألا يتناول أحداً وجبته إلا فى حضورنا جميعاً. ووددت لو أعلن ماقررته الأن على الملأ. ولكننى سرعان ماأتراجع حين تملكتنى لحظات من الهدوء وإعادة التفكير. فأدرك أن الوقت تغير وشخصياتنا تطورت وتخلت عن بعض من الثوب القديم. وينمو إلى مخيلتى ماقولته فيما سبق حين كانوا ينتظروننى وهم صغار وكيف كنت أترفق لحالهم؟. فكيف لى الأن أن أبدل موقفى؟. أحس بأن صراع الخوف من الوحدة هو مايدفعنى لذلك. وأن ماقلته قديماً ربما كان زيف لأنهم كانوا صغار، كما أننى لم أكن أتخيل أن تنقضى الأيام بهذة السرعة . ولكننى إستقريت فى النهاية على الرضوخ لما طرأ وأن أحفظ لنفسى عدم الظهور بوجهين، وأن أتقبل الأمر طائعاً كما تقبلته سابقاً حين تغير ميعاد تناول الغداء. أشرع بإتمام الطعام، ناظراً فى خفاء إلى الرافال فلم أجد سوى تحديقها فى تبجح، وبدا شعرها الأحمر النارى- الذى صبغته بهذة الطريقة حديثاً - صوب عيناى كشهوة أكرهها وأحبها. لا أعرف ما الذى تحبنى لأجله؟. أشعر بأننى تغيرت. ولكن لست وحدى. فالبيت كله تغير منذ أن وطأت شقتنا. فقد إستطاعت أن تتلف عقل زوجتى. وأن تصبح صديقة

مقربة لإبنى، وتشترى وده بتوفير مايحبه، علاوة على صداقتها بإبنتى. كل ذلك لف خلايا عقلى بينما أنسجموا فى متابعه مسلسل تداوم زوجتى على مشاهدته. وقبل أن أفرغ من تناول الطعام. تفرج الإبنة باب الشقة. فتلقى السلام وتصافح زميلتها، وتريها شئ " بالموبايل" ثم يضحكا. أعرض عليها تناول الطعام، وأهم بمناداة زوجتى التى أنهت طعامها قبل إقبال الإبنة، وغادرتنا، لكى تُعد الطعام لها. فتقاطعنى الإبنة، فتقول:-

- لا.. تناولت "سندوتشات" سريعة بالجامعة.

قالتها ثم أخرجت من حقيبتها "ساندوتش" متبقى لديها، تتركه أمامى على الترابيزة، وتنصرف إلى غرفتها، ساحبة الرافال بيدها. أتأمل هيئته ومكوناتة بإستنكار. فلم أشعر بالميل إليه. أنهي طعامى ثم أحمل باقى الاطباق، وأتركه بمكانه. أتجة نحو غرفة الإبن. فأفرجها بهدوء دون أن يلحظنى. كان يعطى ظهره لباب الغرفة. جالساً إلى كمبيوتر حديث، ذو شاشة "LCD" ماركة ."hp"يستمع إلى موسيقى جديدة بصوت عالٍ يسمونها "ترنسماية". أحس بأننى لابد أن أتابعه بدافع الخوف عليه من تبعات إدخال "الإنترنت".ورغم أننى لم أرى ما يخيفنى عليه، إلا إن خوف أخر لم يغادر أضلعى. ومنذ ذلك الحين وأنا فريسة بين

الطوق إلى عالمنا القديم ومابين الإستسلام لمقتضيات العالم الجديد الذى أحاط بنا،. حين أغلقت باب الغرفة، كانت الصالة مظلمة ولم أرى أى شئ حتى نفسى".

وقف عند باب الغرفة الموصده. وإجتهد فى البحث بنظره عن عصاه، بعدما أنهكته المشاهد، فمحت ذكرياته الجميلة التى جاء من أجلها. وأضيئت غرفة العود مع غزو صوته لأذنه. فتذكر تلك الموسيقى التى علمها للرافال. فمثلت له لحظات العشق والمآساه. أحس بأن قدماه تسير به نحو الغرفة رغماً عنه. وإستحضر مع كل خطوة مشهد، يتأكد يقينا بأنه بداية النهاية. فإستسلم لإكمال الحكاية، مهيئاً نفسه للمشهد التالى الذى لم تزل موسيقاه تعلو. وتستمر مع إنتقال الإضاءة من جانبه إلى الجانب الأخر من المسرح.

"تترك الرافال العود لى. وتنظر من الشرفة المرسومة بالجدار إثرى. فأشرع فى العزف، محلقاً مع الموسيقى، مملوءاً بصراع داخلى. فالزوجة فى غرفة النوم. والإبنة فى غرفتها غارقة فى مداعبة "موبايل ماركة نوكيا "N80 الذى إبتاعته لها والدة الرافال. بينما يجلس الإبن فى غرفته مُبحراً فى عالم "الإنترنت". وروحت أنا فى عشق الموسيقى، فبلغت عنان السماء. أشعر بأن

روحى فى مهب الهواء، متحررة من قيود الجسد الهامد، الذى لم أشعر به إلا حينما تلامس يديها أكتافِ. وتحط رحال نهديها فوق ظهرى. فتحملنى بتلال الشهوة. فأفقد القدرة على التحليق. وتتخشب أطراف أصابعى. فأطوقها بذراعى بحركة فجائية بلا قدرة على طول الإحتمال وإنهاءاً للصراع. وملتقماً فمها بقبلة أبدية بعد طول تعفف ظاهرى.وتختبئ أصابعى بداخل شعرها النارى غزير لخصلات. ويتبدى لى جسدها كجمرة مستعرة تدفئنى. ويهوى العقل فى عالم أخر، ويسلم زمام إدارة الجسد لمهب الريح. وأشعر بأن الموسيقى لاتزال تُسكر جسدى والمشهد بأكمله. ولم يفيقنا من نشوتنا وإستسلامها سوى صرخة إبنتى كجرس إنذار. فإتجهنا نحو مصدر الصوت حيث غرفة نومى. فهالنى ركود زوجتى صامتة بلا منطق، فقد غادرت فى هدوء، وبلا مقدمات حقيقة دافعة للموت.لاتزال الموسيقى التى كنت أعزفها لاتزال مستمرة فى أذناى. أحاول نسيان الموسيقى، فلم تغادرنى حتى فى لحظات البكاء. وتضاعف الحزن بداخلى لأن فى موتها حزنان، فرثيتها بحرقة لما إقترفته من ذنب فى حقها. ورثيت بموتها إندثار حياة قديمة بأكملها. ووددت لو أخطرها بمانسيت– عامداً – أن أخطرها به، أو بالأحرى لم أستطع إخطارها به فى حياتها. ففعلت بعد أن أخرجت الكل عن الغرفة. لم تجيبنى لتزيدنى حزناً وبؤساً فوق ما

يملؤنى، وزادتنى تأنيباً بالضمير فى وقت لم أريد فيه سوى أن ألتحف بها، أرتمي بحضنها طالباً صفحها فإستمعت، دون أن تجيب. غادرت فى صمت تحمل السر وكتمت الرد لنفسها آثرة تعذيبى. فى تلك اللحظة أحس بأن صاعقة كهربائية تحاول أن تعيدنى من إغراقِ فى تلك الذكرى. فأهم بالإستجابة لحبالها الملقاه داخل جُبى. وأحاول إثتثارة الضوء لينقلنِ إلى الجانب الأخر من المسرح أو الصعود إلى مرحلة أعلى من الوعى. أشعر بأننى أعافر وكأننى مغيب العقل بفعل مخدر"الفودو" أحاول حساب الساعات التى أعود فيها إلى جسدى الحقيقى، وكأن الوقت توقف عند ذلك الحدث الذى لازال يتكرر نصب عيناى فيصيبنى بالتعب والحنق. أنظر نحو الساعة كمحاولة جادة للعودة بسرعة إلى الواقع. أبتعد عن الفراش، أتركها متدثرة بالغطاء، متجهاً نحو الباب ولكن بخطوات أشبة بسلحفاه، وكأن هناك مايحاول إستبقائى. أتملص مبتعداً عن الغرفة. وفى قلبى رغبة الوصول لمكان ما. فأغلق بابها إثرى".

سُلطت بؤرة الضوء عليه. فإذا به يجلس إلى صدر ترابيزة السفرة من جديد محاولاً إستجماع أنفاسه اللاهثه، وكأنه جاء إلى ذلك المكان عدواً أو هارباً من شئ ما، هدأ ثم أزال التلفاز "التوشيبا "من مكانه، وأعاد التلفاز ماركة "NAC" بمكانه، يقطع وصلة

الدش ثم يعودإلى مقعده بصدر الترابيزة وكأنه يستنجد بالبدايات. داعب مؤشر الراديو كما كانت تفعل زوجتة بالصباح، وقبل أن تبدل تلك العادة القديمة بالتلفاز الذى زادت ساعات إرساله ليواصل الليل بالنهار، وبزوغ المحطات الفضائية. يستمع لإذاعة الأغانى القديمة. فلم يسمع بداخله سوى صوت كوكب الشرق تشدو" عايزنا نرجع زى زمان قول للزمان إرجع يازمان" فتسقط دمعه من عيناه بلا إرادة فى سكون الليل ،وينظر إلى صورة زوجتة المعلقة على الجدار ، فأحس بأنها لاتزال محتفظة بألوانها المبهجة، وليست خليط من اللون الابيض والأسود كشأن كل شئ حوله. هكذا تخيل الحياة كلهابما فى ذلك صور أبناءه. فقد تغيير كل شئ فى نظره.أغلقت أبوابها كلها على أحزانها وأفراحها.فتملقته الوحدة كأمر واقع لا فكاك منه. فإستسلم لنهايه الحكاية، بإستكمال رحلة الوصول لواقعه الحالى.

"أُعد الطعام فى نفس الميعاد القديم، أعلم جيداً بأنه غير مَلزم لأحد سواى. أتصل بإبنتى- كما علمتنى أن أتصل على " الموبايل التاتش " الجديد الذى إبتاعوه لى – من باب المحاولة لا أكثر. فلم أجد سوى رسالة مسجلة تخطرنى بأن الهاتف ربما يكون مغلقاً. طرقت غرفة الأبن ثم فتحت الباب. فإذا به يكتب شى على لوحة " اللاب توب" الخاص به، وهو يحادث خطيبته

تارة ثم يكمل إرتداء ملابسه إستعداداً لمغادرة المنزل تارة أخرى. حين يلحظنى، يقطع حديثه مع خطيبته، فأسأله – برجاء خفى– أن يتناول الطعام بصحبتى. فيتعلل قائلاً:–

– سأتناوله بالخارج مع خطيبتى.

أومأ دون أن أجيب، وآسر مشاعرى المنكسرة بداخلى.يودعنى بإمضاء قبلة أبويه خاليه من الروح كسد خانة ، بينما لايزال "الموبايل التاتش ماركة سونى" على أذنه. أفسح له الطريق لمغادرة الغرفة ومن ثم الشقة.أعود إلى ترابيزة السفرة كرة أخرى. أحس بأن الفراغ سكين بارد يعذبنى ببطء وخاصة بعد أن أحيلت على المعاش. أشعل التلفاز للتسلية فضلاً عن الفراغ، أعفر سيجارة من مكتسبات ليالٍ الوحدة والملل.أبدل القنوات بلا رغبة فى شئ بعينه.أتناول الفتات من الطعام بلا شهية. أمسك "الموبايل السامسونج"بطريقة لا إردية. وأطلع– كما علمونى – على الأخبار والأحداث عبر "الإنترنت". محاولاً التقرب إلى الأبناء بوسائل عصرهم. فأحادث الإبنة من خلال الحساب الخاص بى على "الفيس بوك". فلم أجدها"أون لاين". أترك لها رسالة فيها من الرجاء بقدر مافيها من عزة النفس، بالإسراع لتناول الغداء فى صحبتى. ولكننى تراجعت عن كتابتها وكتمتها

بنفسى.أغادر الترابيزة، وأجلس إلى الكنبة "الإستديو"أمام التلفاز، ممسكاً بأول "موبايل" أعطته لى الرافال.أحضرته من درج البوفية المرصوص إلى جانب ترابيزة السفرة. أتسلي بقراءة الرسائل، وتطور العلاقة، وكيف تسللت إلى بيتنا؟. وكيف إستولت على عقلى وعقل كل شخص فى الشقة فوقع أسير لها ولعشرتها ولكل ماتطرحة من جديد؟. أتذكر ما آلت له علاقتنا من إعجاب إلى عشق حتى السُكر إلى لا مبالاه وإحساس بالندم. فإبتعدت بإرادة من حديد بعد موت زوجتى. وأحست هى بما طرأ على علاقتنا. فى البداية إستغربت، ولكنها لم تعافر، فما الذى يدفعها لعشق رجل ستينى بلا روح؟. فإتخذت من رفضى سبباً للهرب والوقوع فى حب أخر أنساها ذلك الحب القديم. وآثرت عشق شاب أخر فى مثل عمرها.وعاشت متنقله مابين منزلنا ومنزل خاص بها. ولم ينقطع عنا روحها التى أمست جزءاً من حياتنا. يستغرقنى الوقت. أهم بإزالة الصحاف. يُفرج باب الشقة. تطأ إبنتى أرض الشقة، وفى صحبتها الرافال. تحمل فى يدها "سندوتشات" من ."k f c" فتعاجلنى قائلة:-

- لا تقُل بأنك أكلت.

أجبت بالنفى. فتكمل الإبنة:-

- إذن سنأكل معاً.

يتجها نحو الغرفة لتبديل ملابسهما. أعيد إخفاء "الموبايل" القديم، بعد أن إستغرقتنى المقارنة بينه وبين ما أملكه الأن. فأدركت أن عمر مضى، تبدلت فيه ملامحنا، وتغيرت شخصياتنا، وأرواحنا. أتجة نحو ترابيزة السفرة، لأعيد تهيئة الطعام البيتٍ الذى صنعته بيداى، عملاً بطريقة زوجتى التى كانت تسجلها بأجندتها. أفض أغلفة الوجبات تم إحضارها. يقبلا نحو المائدة. تتبدل حالة الحزن وفقدان الشهية، بالإنتشاء ليس لتناول الطعام فحسب، ولكن للإجتماع حول مائدة واحدة كما كنا. أتناول الطعام البيتِ وحدى. ينما شرعا في نهم "السندوتشات" التى تم إحضارها، وسرعان ماتتملكنى رائحتها، فأقع أسير لها. أترك الطعام البيتِ، وأتناول ما أحضراه لى بلا إرادة. تتحدث إبنتى وعلى وجهها ترتسم حاله من الفرح:-

- اليوم.. تقدم لى عريس من العمل.

بقدر مافرحت لما قالت. بقدر ماحزنت مما ينتظرنى. شاطرتها السعادة، وأخفيت مخاوفى بداخلى، ثم تشرع الرافال بالحديث:-

- وأنه من أسرة ميسورة الحال، ويعيش فى مستوى مادى مريح.

بدا وجهى فى تلك اللحظة خالياً من أى تعبير مما دفع الرافال لإستكمال حديثها:-

- لذا سنعيش فى شقة أخرى فى "كمبوند" كبير.

فأكدت الإبنة على حديثها:-

- لقد سئمنا تلك الشقة. فهنا لا يوجد سوى الذكرى السيئة، والفقدان. ولم نعد نحتملها بعد وفاة والدتى. كما اننا نريد أن نرتقى كالعالم من حولنا.

أصمت لما يُملى علىَ ولم أعترض، رغم كم المنازعات التى تكاد تمزقنى داخلياً، وكأن هناك من يقيدها داخل الحدود الجغرافية للجسد. تركت نفسى لأن أكون قطعة ضمن تلك القطع الموجودة بالشقة. لا قرار لها ولا قدرة لها على الإعتراض حين ينقلها أحد من مكان لأخر. أقرر حمل أشياء أحبها حين نغادر. كالعود، فيعوقنى ذكرى فقدان زوجتى المرتبطة بموسيقاه. فأنزع عن نفسى فكرة إصطحابه. ولكننى أتشبث بأجندة زوجتى كما أُصر على

حمل ذلك الراديو ذو الطراز القديم. رغم ماتخبرنى به الرافال من وجود كل شئ بالشقة الجديدة كما لو كانت الجنه. ولكن يراودنى هوى بأننى لن أجد مثلهم بالمكان الجديد. يطفئ الضوء فجأة على ذلك الجزء من الذاكرة".

أُذن لـه بالحركـة. فحمـل الراديـو والـذكريات والصـور والأحـداث والرفـاق، وتعكز علـى عصـاه بـأبطء ممـا كـان عليـه قبـل أن يطـأ عـالم الشـقة. وتحـرك مملـوءاً بالمسـرات والمبكيـات، وبداخلـه رغبـة ملحـة فـى التمسك بمكانـه ولا يبرحـه. ولكنـه إتجـة نحـو البـاب كمن لاحيلة له ولا قدرة على تقرير المصير. فغادر من حيث جاء.

(3)

عصفور، يزقزق بصوت حزين فوق شرفة شقته الغارقة فى الثراء. فيشاطره الوقوف والنواح عصفورين أخرين،ويختلط بأصواتهم همهمات الراديو الذى لايزال مستمراً منذ الأمس، ثم يتبعها دقات الهاتف المتتالية. فلا تجد من يجيب. فيتبعها رساله صباحيه من الإبن عبر الأنسرماشين. كشأن كل يوم.

- صباح الفل.. كيف حالك؟. لازلت نائم.. أردت الإطمئنان عليك. سأحادثك مرة أخرى.

ولم يمض دقائق، حتى هل صوت إبنته عن بعد، فألقمته تحيه صباحية عبر برنامجها الإذاعى، ولم يخلُ ذلك من أغنية من عهد قديم يحبه " ياحلو صبح ياحلو طل"، وعاد صوت الهاتف ليطل من جديد وتبدل رنينه بصوت الموبايل. فلم يجيب عن عمد. وظل ماكثاً بمقعده المفضل عند رأس الترابيزة، التى يوضع فوقها الراديو، والأجندة، وفطور بيتٍ لأربعة أفراد وفقاً لطريقة زوجته. وصوب بصره نحو باب الشقة المقابل له فى حالة من التمنى والرجاء. وإتخذ عهداً بألا يصغى السمع، ولا النظر إلا لما يحب. الصوت الوحيد الذى كان على إستعداد لسماعه هو

صوت"تكات كالون الباب عند فتحه. والشئ الوحيد الذى أعطى لعينيه الحق فى رؤيته هو إستدارة الكالون. إسترخى إلى ظهر مقعده دون قدرة على تخيل أكثر من ذلك. فقد أنهكته أحداث الماضى بأفراحها وأطراحها. فآثر السباحة فى ربيع الصمت والإنتظار.

"تمت"

"حبة الكيوى"

الحرمان أول كلمه خطها المدرس بإصبع الطبشور حين وطأ أرض الفصل، وأطلق العنان للخيال، وسمح لمن يجيد إلقاء قصة بملئ فراغ الحصة الشاغرة.فهبطت كالوحى من ثنايا الذاكره قصة كتبتها وعشتها فى مرحلة سابقة. فأشرت لة فى التو، فمنحنى إشارة البدء، وإستمع كسائر الزملاء فى صمت.

"لم يعرف بالضبط متى شاع ذلك النوع من الفاكهة فى طبقته. لكنه لم ينس أبداً ذلك اليوم الذى رأى فيه زميل المقعد المجاور منهمك فى إزاله لباسها البنى بصعوبة. يومها سال لعابه حين تعرى لحم الفاكهة الأخضر، وإزدرد ريقه كلما ترآى له إتساع البقعه الخضراء، ولاحت فى عيناه رغبه صادقه فى المذاق، وإرتسمت على ملامحه تجسيد واضح لكلمة الحرمان. كل ذلك بدا لى فى نظرته الهائمة نحو الفاكهة، وكل ذلك دفعه للسؤال:-

-ما أسمها؟.

-كيوى.

قبل أن يطرق باب مسكنه، عبأ بداخله حديث طويل عن الفاكهة، أراد أن يحاكى والدته بشأنها. فهفا إلى مسمعه حديث أخر دائر بين والدته وجارتهم:-

-إذا كانت الظروف صعبة فلاسبيل سوى إخراجه من مدرسه عاليه التكلفة وإلحاقه بأخرى أقل و...

قاطعتها والدته فى لهجه رافضه مستنكرة:-

-لا..لا..لابد أن يكمل حتى ولو أضطررت لبيع ملابسى.

ثم تحدثت بلهجة هادئة:-

-لا أريد أن أحطم نفسيته، كفاه موت والده.

تجرع كل كلمه قيلت ممزوجة بنبرة اليأس المتشعبة فى صوت والدته. فألمته، وعرف عظم الموقف بكم المواساة والمساعدة ومحاوله إيجاد الحلول فى لهجة الجارة. فضايقته، وأدرك فى تلك اللحظة أن القدر يدفعه نحو مرحلة أخرى تتسم بالتجلد وقتل

الرغبات. فإنصاع له، وكبت شغفه وولهه بداخله. وقرر إن كان يرغب فى تلك الفاكهة فعليه أن يتحمل عناء تحقيقها بعيداً عن والدته . إنقضى الحديث، وأحس بالخطوات تقترب نحو باب المسكن. فأسرع بطرقه، وحين إنفرج. إستطاع كممثل بارع أن يبدى غير مايبطن. وأن يطفر البهجة فضلاً عن الضيق الذى يكويه. فى نفس الوقت الذى تلاشت فيه نبره الحزن فى لهجة والدته وحلول بهجه مماثلة. وأستئذنت الجارة بعد المصافحة. وحين حل الليل أخذتة كعادتها بين أحضانها. وراحت تسأله بعض الأسئله المعادة عن الدراسه والمدرسة. فحكى بنفس قدرتها على التشويق حين تحكى دون أن يقص مايضمره. وأدركت بحس أم أنه يخفى شئ ما. ولكنها لم تسأله. وبدأت فى قص أقاصيصها الدائمه –قبل النوم– بقدرتها الفطرية على التشويق رغم أنها لم تقرأ قصة. وكتم شغفة نحو الفاكهة بعقل ناضج. وقرر البحث عن سبل الحصول عليها لإرضاء الطفل الذى لم يغادرة بعد. وراح فى سبات عميق تحت مظله ماتحكيه ومداعبه خصلات شعره.

فى فترة الراحة من يوم جديد.أخرج من حقيبتة أرغفة الجبنة البيضاء التى تعدها له والدته كل يوم. وبدأ فى قضمها رغم حاله التذمر التى تعتريه ،ولكنه لم يستطيع البوح أو الأعتراض بعدما

سمع حديث الأمس. ونظر إلى ما يأكله الزملاء من حوله من أشهى الأطعمة. فلمع نصب عينيه فكره فقرر فى التو وضعها قيد التنفيذ. فإقترح على زميل المقعد الذى يمكث به، والمقعد الخلفى والأمامى أن يضعوا كافة الأرغفة لديهم على طاوله واحدة. وأن يتناول كل فرد منهم مايحلو له من الأرغفة المختلفة. أعجبتهم الفكرة بطريقة أثارت إستغرابة ،وزاد من إستغرابة سعيهم لإختلاق أسم لتلك الحاله فأستقروا على أسم "الغديوة". وإستطاع بفضل تفكيره أن يغير تركيبة معدته التى أضحت ككائن يتغذى على الجبنة البيضاء وأبدلها بأرغفة البسطرمة بالبيض والكبدة والسجق والفراخ المخليه. ولم يقترب قط من أرغفة الجبنة البيضاء خلال أيام "الغديوة". هكذا هو دائماً يختلق لكل شئ حل أتذكر حين أحس بقلة المصروف وعجزة عن شراء مايشتهية أقنع زميل المقعد أن يجمعوا المصروفين وقرروا شراء من كل شئ واحد يتقاسمونة حتى يتسنى لهم شراء كل شئ، لاقت الفكرة رواجاً لفترة دراسيه إنتهت بإنتقال الزميل لمدرسة أخرى. وعلى الرغم من قدرتة على الإقناع، وإيجاد الحلول الشيطانية لأزماتة. فقد ظل مذاق الكيوى يتراقص نصب عينيه، ويلسع طرف لسانه كلما رنا إلى المقعد المجاور فيرى زميل المقعد المجاور مستغرقاً فى إزاله قشرتها بصعوبه كل يوم. وقرر أن يمهد سبيل لجذبه إلى "غديوته"

ولكنه لم يجد سوى طالب ذو كبرياء متعجرف، يؤثر الإنتفاع بطعامه وحده،وبرغم ضيقه من أسلوبه. إلا أنه لم يعبأ بما أبدى بقدر سعيه الدؤوب فى قضمة واحده من حبة الكيوى. وذات يوم تحرك من مكانه ، ووقف أمامه وهو منهمك فى إزاله القشرة البنيه. وتساءل ليخلق مجالاً جديد للحديث:-

- ماثمنها؟

- ٥ جنيهات للواحدة.

فأدرك أنه يحتاج لأن يدخر مصروفه لمده أسبوعين لأجل إبتياع واحدة. فسئم طول الإنتظار، وعظم الإدخار. فتشوق لكوز العسل والحرنكش والنبأ وأحياناً الكشرى العائم فى مياه الخل داخل الكيس المنفوخ لمجرد أنه تذكر كلمة إدخار. وإستغرق فى رحلة التأمل والتفكير ولم تبرح عيناه المتشبثه بالمساحة الخضراء التى تزيد بجسد الفاكهة. ولاحت فى عيناه نظرة تشى بالعجز والرغبة والحرمان. وطفت علية غريزة حيوان مفترس لايعى العالم من حوله سوى بغيته. وإمتلكة إحساس واحد كلما أغرته إتساع المساحة الخضراء.فإنقض عليها بأسنانه كنسر لايخطئ الإفتراس، ولم يتركها سوى وقد أصابها بحفرة عميقه تصل حتى القشرة

الخارجية على الناحيه الأخرى من جسد الفاكهة، وربما إبتلع القشرة بين فكيه. وتراجع بغنيمته وسط ذهول صاحب الكيوي، وضحك بعض الزملاء وسخط الأخرين وسخريتهم التى لم يعبأ بها. فإنقض عليه صاحب الكيوى حانقاً وباكياً وهوى عليه ضرباً ونهراً بعد أن قذفة بالجزء الباقى من حبة الكيوى. فإلتقطها. وأكمل قضمها حين إنفض المكان. فبقدر ماشعر بالضيق لما لاقاه من نهر وسخريه وبقدر ماقرره مجلس إدارة "الغديوة" من عدم إشراكه معهم مرة أخر وعودته للجبنة البيضاء، بقدر ماشعر بالسعادة لأنة ذاق الكيوي، رغم أنة لا يعرف ماسبب تعلقة بتلك الفاكهة الوافدة عليهم التى مايفتأ أن يتذكرها فيلسع مذاقها لسانه ويتملكة الإنتعاش وتزيد بداخله الرغبة فى الحصول على واحدة.

فى غرفته، أحضر ورقة، ورص الألوان، وبدأ فى ممارسة هوايته فى الرسم، وخط بدقة مجسم واضح – من مخيلته– لحبة الكيوى. وراح يخرج من درج مكتبه مجموعه من الرسومات لأشهى الأطعمة التى أحس برغبته فيها ولم تمهله الظروف القدرة على تذوقها. فرسمها. وبدأ فى تعليقها على الجدار. وجلس ينظر إلى الأوراق المعلقة فى حاله من العشق، لم يخرجه منها سوى دخول والدته الغرفة. فنظرت حولها فى تأمل حين رأت الصور، فإبتسمت، وحين أدركت بحسها ماتنطوى عليه الصور،

أحست بالحزن الذى لم تستطع فى تلك اللحظة إخفاؤه. فأدركه، وإنسجم فى إكمال رسم الكيوى. فإقتربت بإتجاهه وتساءلت عن رسمته الجديدة، فأجاب:-

- كيوي

فأومأت برأسها دون تعليق، وأدركت بأن ماتصنعه من طعام لم يدرج ضمن رسومه. فأرادت أن تضيف جديد وتبدل الحاله التى أعترتها، فقالت:-

-فى الغد سوف تأكل ما هو أجمل وأشهى.

إبتسم بطريقة مصطنعة، وقام من مكانه يزيل صور الجدار، وقد أصابه الحنق وهو ناظراً إلى الحائط، ولام نفسه على مابدى منه، فحملها فوق ماتحتمل رغم ماعزم عليه من إخفاء رغباته، وأدرك سعيها الدؤوب لإسعاده، لذلك فرغم علمه بأن ماستصنعه بالغد لن يصل حد رغباته. فقد قررأن يصنع على وجهه عند عودته سعاده لامثيل لها.

فى الفصل. بدأ يومه وحيداً، وسط نفور الزملاء وسيل السخريه الجانبيه والعلنيه. وإنزوا فى مقعده يعزى نفسه بمعرفه ماهيه

الأرغفة التى صنعتها والدته. فبدأ فى إفراج الحقيبة، فندت عاصفه من رائحة البطاطس المقليه المحاطه بقدر معلوم من الشطة والملح داخل أحضان خبز بلدى خرج لتوه من الفرن. فلا يزال البخار يعبق الكيس الذى يغلف الأرغفه. وراح يفكر هل رسم على الجدار البطاطس كشئ يشتهية أم لا؟!. فتأكد بعد الفحص والتدقيق أنة لم يرسمها. أذن ما المعنى الذى تقصده والدته؟!. لم يطل التفكير كثيراً. ولم يدرك طعم السعادة لما صنعت والدته، ولكنه سلم بحقيقة أنه لاسبيل ينجده ولو مؤقتاً من أرغفة الجبنة البيضاء سوى تلك الأرغفة. فأخرج أول رغيف، وهم بقضمه. وما هى لحظات حتى تحدث أحد زملاء "الغديوة":-

- رائحة أرغفتك شهيه

أومأ له مؤكداً دون أن يتحدث، وأهم بقضم الرغيف ثم أكمل الزميل:-

-هل بالإمان أن أأخذ واحداً؟.

هم بالتعليق، ولكنه صمت تحت أسئله التلاميذ الذين إلتفوا حوله راغبين فى عوده المياه لمجاريها. فإستمع لكل ماقيل دون إجابه تذكر. فقد آثر أن يفرض شروطه. ولم يمهله العقل بالرد المأمول

بعد. ففتح الكيس ليعيد الرغيف داخله. وإنطلقت الرائحه تجوب الأنوف فتُذيب زملائه عشقاً فيما يملك، ونظر إلى الشاب المتعجرف فوجده منسجم فى تناول طعامه وحده ولم يهتم بما طرأ، وتحدث أحد الواقفين:-

- مارأيك أن تبيع لنا؟.

وأكمل أخر وهو يشير إلى صاحب الكيوى:-

- وبالمال تشترى ماتحب وتشتهى.

أعجبته الفكرة كما لو كان يعصر عقله حتى يعثر عليها. وقرر فى التو أن يبيع الرغيف الواحد بـ٥٠ قرشاً. فتخطف الزملاء الأربعه أرغفة التى صنعتهم والدته وسط حاله من الدهشه تملكته. مالذى جعلهم ينقضوا على طعامه الذى يمقته رغم أنهم يأكلوا مايشتهيه ولايملكه سوى فى رسوماته. ولم تمهله الجنيهان فى يده إطاله التفكير كثيراً، بل فكر جاهداً فى حاجته لثلاثه آخر حتى يتسنى له شراء حبه الكيوى.

عاد إلى المنزل، يرتدى ثوب حقيقى للفرحه، لا ثوب مزيف إعتاد على لباسه منذ أن سمع والدته تفضى بما يعتمل فى صدرها إلى الجاره. وأحس بأنه يسبح فى الهواء كطير يجوب السماء. فسألته والدته عن سر سعادته، فأجاب:-

- أرغفة البطاطس.

تستغرب ثم يكمل:-

- إلتهمتها كلها من فرط لذتها.

إبتسمت وهى لاتصدق نفسها إلا وقد اقسم لها على سعادته بسببها، وطلب منها فى حماسه أن تصنع له بالغد سته أرغفه من البطاطس المقلى بالشطه والملح".

حين إنتهيت من إلقاء القصه.أشار المدرس بإنتشاء إلى الزملاء، وطلب منهم أن يصفقوا لى. وحين إنتهوا من التصفيق الحماسى. تساءل المدرس:-

-من علمك إلقاء القصص؟.

-أمى.

أشار لزملاء الفصل آمراً أن يصفقوا لأمى. وطلب فى جديه حين فرغوا أن يختلقوا أسم للقصة. فاختلفوا بين الأسماء، وثارت الكلمات والجمل ، وألقيت العناوين المختلفه، ولم يستقروا على رأى. فقد أخترت أسم لها لم يغادرنى مذاقة طيله حياتى، وسألنى المدرس أن أعنون القصة. فأخبرته. حينها أبدل كلمه الحرمان بحبه الكيوى . ودق الجرس معلناً إنتهاء الحصه.

"تمت"

الفهرس

الإهداء ٥
"لقاء عابر" ٧
"سيارة تعمل بالمشاعر" ١١
"ليلة شتاء" ٤٩
"شهيد بحر الوعى" ٥٧
"ثمن التعود" ٧٥
"أتوبيس نقل عام" ٩١
"المتاهة" ١٠٣
"حسن الختام" ١٠٩
"الذى أضحك وأبكى" ١٢٥
"أغانى بطعم الحياة" ١٣١
"أحلام فى درج المكتب" ١٣٩
"إتفاق تحت كوبرى أكتوبر" ١٥١
"السائق والقطيع" ١٥٥
"عن ٢٠ عاماً عمر علاقتنا" ١٦٧
"العصفور والقفص" ١٧٣
"نظرية اليأس" ١٨٣
"صمت الخريف" ١٨٩
"حبه الكيوى" ٢٣٥